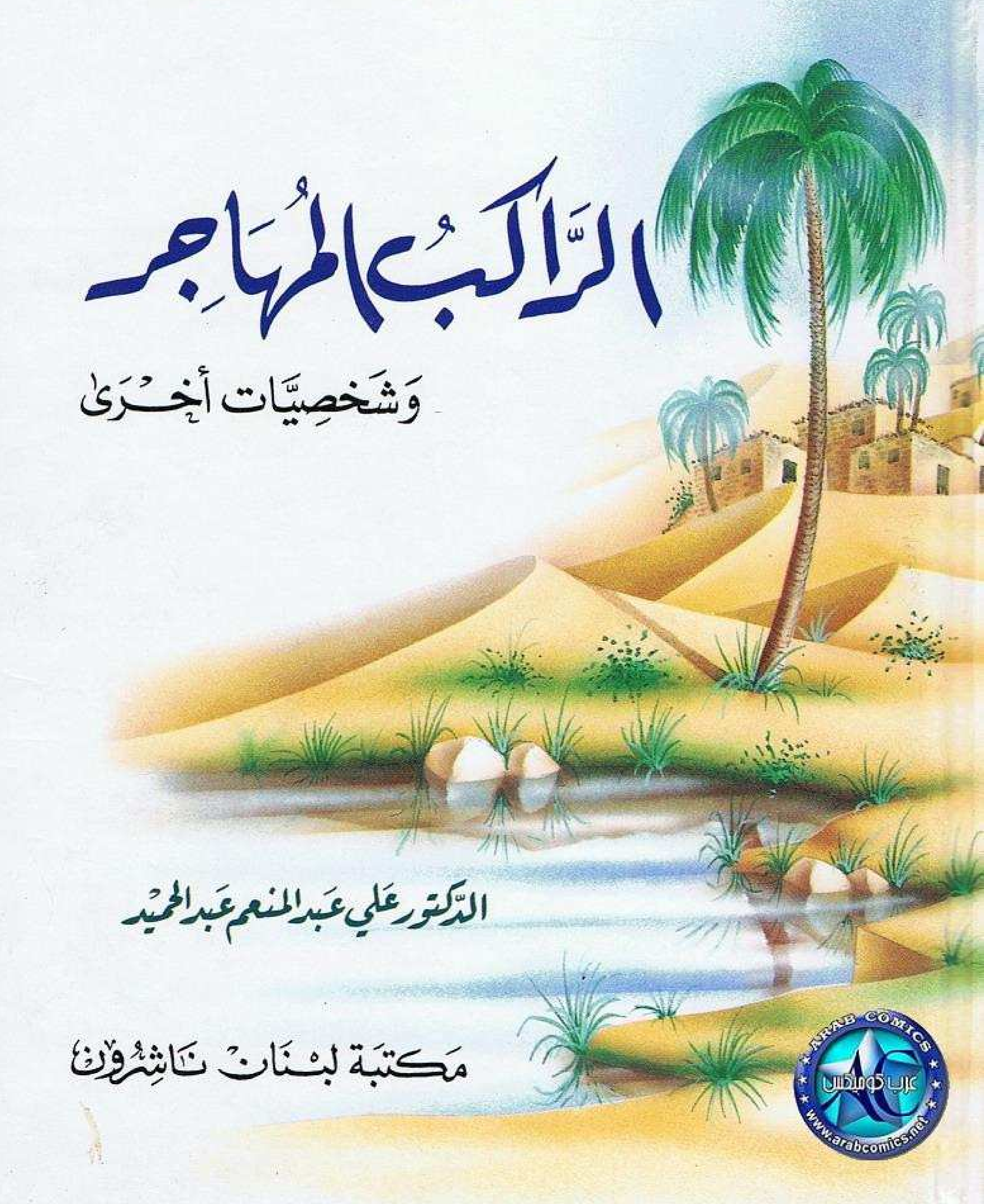
سلسلة رياض الإيمان

نفحات من سِيرة الرّسُول وصحبه



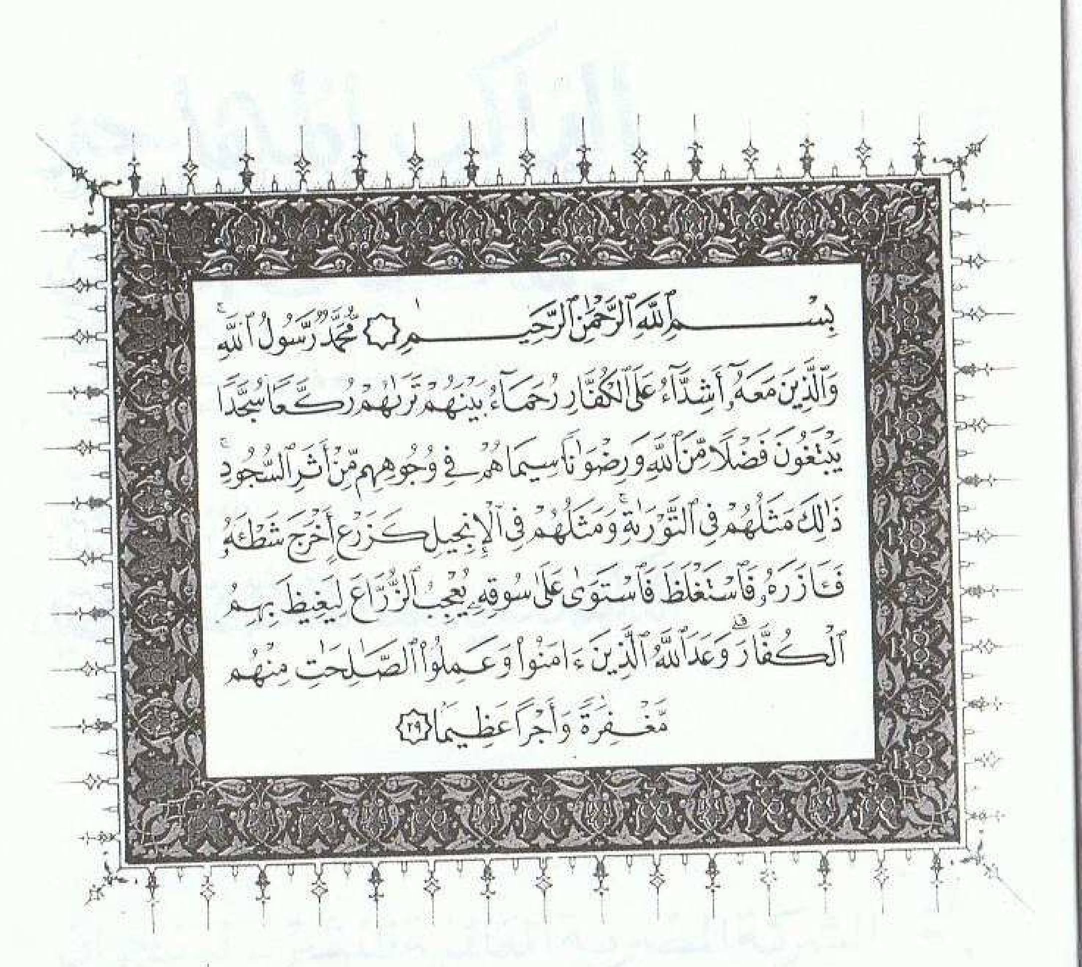
الرّاكب المُهاجِر

وَشَخصِيّات أخرى

الدّكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون

الرّاكب المُهاجِر
وشخصيّات أخرى





نفحات من سيرة الرسول وصحبه

الرّاكب المُهاجِر وشخصيّات أخرى

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد



إشراف الدكتور على عبد المنعم عبد الحميد

١٠ أ، شارع حسين واصف، ميدان المساحة، الدقي، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

ص. ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء، وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٦

رقم الإيداع ١٠٠٧٣ / ١٩٩٦
الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧-١٦-٠٢٢٥-X

طبع في دار نوبار للطباعة ، بالقاهرة

خَطيبُ الرَّسولِ ﷺ
(ثابِتُ بْنُ قَيْس)

مَنَحَهُ اللهُ فَصاحَةً في اللِّسانِ ، وَسِحْرًا في البَيانِ ، وَقُوَّةً في الحُجَّةِ . إذا قال بَذَّ (غَلَبَ) جَميعَ القائِلينَ ؛ وإذا خَطَبَ خَلَبَ عُقولَ السّامِعينَ ، وإذا جادَلَ أَفْحَمَ كُلَّ المُجادِلينَ .

اسْتَمَعَ إلى القُرْآنِ الكَريمِ ، يَتْلوهُ الفَتى المَكِّيُّ « مُصْعَبُ ابنُ عُمَيْرٍ » ، أَوَّلُ مُبَشِّرٍ بالإسْلامِ خارِجَ مَكَّةَ ، فَأَصاخَ إلَيْهِ بِسَمْعِهِ ، وَصَغا (مالَ) إلَيْهِ بِقَلْبِهِ ، وَإذا هُوَ يَمْلِكُ عَلَيْهِ كُلَّ حِسِّهِ ، فَلا يَسْتَطيعُ لَهُ مُقاوَمَةً ولا عَلَيْهِ امْتِناعًا . لَقَدْ تَذَوَّقَ بَلاغَتَهُ ، وَأَدْرَكَ بَعْضَ أَسْرارِ بَيانِهِ ، وَوَعى شَيْئًا مِنْ مَبادِئِهِ ؛ فَإذا هُوَ يوقِنُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ صُنْعِ البَشَرِ ،

وَأَنَّهُ تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ ، وَإذا هُوَ يَدْخُلُ في الإسْلامِ .

أَسْلَمَ « ثابِتُ بْنُ قَيْسٍ » ، وَهُوَ سَيِّدٌ مِنْ ساداتِ الخَزْرَجِ المَرْموقينَ ، وَواحِدٌ مِنْ وُجَهاءِ يَثْرِبَ (المَدينَةِ) المَعْدودينَ ؛ فَقَدْ مَلَكَ عَلَيْهِ القُرْآنُ الكَريمُ وِجْدانَهُ ، وَراعَهُ ما فيهِ مِنْ بَيانٍ وَهُدًى وَتَشْريعٍ ، وَراحَ يَتَرَقَّبُ هِجْرَةَ الرَّسولِ ﷺ مَعَ المُتَرَقِّبينَ ، وَيَنْتَظِرُ قُدومَهُ لِتَكْتَحِلَ بِرُؤْيَتِهِ عَيْناهُ - مَعَ المُنْتَظِرينَ .

فَلَمّا جاءَ الرَّسولُ المَدينَةَ ، وَاسْتَراحَ بِقُباءَ - إحْدى ضَواحيها - وَقَفَ « ثابِتُ بْنُ قَيْسٍ » بَيْنَ يَدَيْهِ خَطيبًا . . افْتَتَحَ خُطْبَتَهُ بِحَمْدِ اللهِ تَعالى ، وَالثَّناءِ عَلَيْهِ ، وَالصَّلاةِ وَالسَّلامِ على رَسولِهِ الكَريمِ . . ثُمَّ كانَ خِتامُها قَوْلَهُ :

« إنّا نُعاهِدُكَ ، يا رَسولَ اللهِ عَلى أَنْ نَمْنَعَكَ (نَحْميكَ) مِمّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَنْفُسَنا وَأَوْلادَنا وَأَزْواجَنا . . فَما لَنا لِقاءَ ذلِكَ ؟ »

وَجاءَ جوابُهُ ﷺ في كَلِمَةٍ ، هِيَ :

« الجَنَّةُ . »

فَأَشْرَقَتْ وُجوهُ القَوْمِ ، وَفاضَتْ نُفوسُهُمْ بِالْبِشْرِ وَالحُبورِ ، وَقالوا :

« رَضينا ، يا رَسولَ اللهِ . . رَضينا ، يا رَسولَ اللهِ . »

وَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ جَعَلَ الرَّسولُ ﷺ « ثابِتَ بْنَ قَيْسٍ » خَطيبَهُ ، كَما جَعَلَ « حَسّانَ بْنَ ثابِتٍ » شاعِرَهُ .

فَكانَ إذا أَقْبَلَ وَفْدٌ مِنَ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ عَلى المَدينَةِ ؛ وَمَعَهُ خُطَباؤُهُ وَشُعَراؤُهُ - كَما كانَتْ عادَتُهُمْ - نَدَبَ الرَّسولُ ﷺ خَطيبَهُ « ثابِتَ بْنَ قَيْسٍ » لِيُصاوِلَ الخُطَباءَ وَيُنازِلَهُمْ ، وَشاعِرَهُ « حَسّانَ بْنَ ثابِتٍ » لِيُطاوِلَ الشُّعَراءَ وَيُفاخِرَهُمْ .

لَزِمَ « ثابِتُ بْنُ قَيْسٍ » رَسولَ اللهِ ﷺ ، يَقْتَبِسُ مِنْ نورِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ مِنْ عِلْمِهِ ، وَيَسْتَضيءُ بِهَدْيِهِ ، فَتَغَلْغَلَ الإيمانُ

في قَلْبِهِ ، **وَمَلَكَ كُلَّ** جَوارِحِهِ ، وَانْطَبَعَ بِهِ سُلوكُهُ ، فَأَخَذَ يَتَحَرّى مَواطِنَ الصِّدْقِ وَالخَيْرِ ، وَيَتَجَنَّبُ كُلَّ مَوْطِنٍ فيهِ مَظِنَّةُ الشَّرِّ ، وَاشْتَدَّتْ خَشْيَتُهُ مِنْ رَبِّهِ ، وَرَغْبَتُهُ في رِضائِهِ .

رَآهُ الرَّسولُ ﷺ يَوْمًا خائِفًا مَحْزونًا ، يَرْتَعِدُ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ وَالجَزَعِ ، فَسَأَلَهُ : « ما لَكَ ، يا أَبا عَبْدِ اللهِ ؟ »

فَأَجابَهُ : « أَظُنُّ أَنَّني قَدْ هَلَكْتُ ، يا رَسولَ اللهِ ! »

قالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « وَكَيْفَ ذَلِكَ ، يا أَبا عَبْدِ اللهِ ؟ »

قالَ « ثابِتٌ » في صَوْتٍ تَخْنُقُهُ العَبْرَةُ :

« يا رَسولَ اللهِ ، لَقَدْ نَهانا اللهُ عَنْ أَنْ نُحِبَّ أَنْ يَحْمَدَنا النّاسُ بِما لَمْ نَفْعَلْ ، وَأَنا رَجُلٌ يُحِبُّ الحَمْدَ وَالثَّناءَ . وَنَهانا اللهُ عَنِ الزَّهْوِ وَالخُيَلاءِ ، وَأَنا أُحِبُّ الزَّهْوَ وَالخُيَلاءَ . »

وَراحَ الرَّسولُ ﷺ يُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِ ، وَيُخَفِّفُ عَنْهُ أَساهُ

وَندَمَهُ ، ثُمَّ قالَ لَهُ :

« يا ثابتُ ، أَلا تَرْضى أنْ تَعيشَ حَميداً وَتُقْتَلَ شَهيداً وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ ؟»

وَتَهَلَّلَ وَجْهُ « ثابتٍ » ، وَانْزاحَتْ عَنْهُ الغِشاوَةُ ، وَهَتَفَ :

« رَضيتُ ، يا رَسولَ اللهِ . . رَضيتُ ، يا رَسولَ اللهِ !»

وَانْبَسَطَتْ أَساريرُ « ثابتٍ » بِهَذِهِ البُشْرى ، وَتَعَلَّقَتْ بِها نَفْسُهُ ، وَهَفَتْ إِلَيْها روحُهُ ، فَازْدادَ للهِ خَشْيَةً ، وَلِلرَّسولِ الكَريمِ مَحَبَّةً ، حَتّى إنَّهُ عِنْدَما نَزَلَ القُرْآنُ الكَريمُ يُعَلِّمُ المُسْلِمينَ كَيْفَ يُخاطِبونَ الرَّسولَ الكَريمَ ، وَما يَنْبَغي أَنْ يَكونوا عَلَيْهِ مِنَ الأَدَبِ العالي ، وَالخُلُقِ السّامي ، فَيَجِبُ أَنْ يُخْفِضوا أَصْواتَهُمْ في حَضْرَتِهِ ، وَأَنْ لا يَعْلُوَ صَوْتُ أَحَدِهِمْ عَلى صَوْتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ ، وَيَمْحوها ، وَيَجْعَلُها كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَهُمْ لا

يَشْعُرونَ . . اِسْتَمَعَ « ثابتٌ » كَما اسْتَمَعَ غَيْرُهُ مِنَ المُسْلِمينَ إلى قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ يَأَيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَرْفَعوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَروا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرونَ . ﴾

وَالْتَزَمَ المُسْلِمونَ تَعاليمَ القُرْآنِ ، وَاسْتَجابوا لِتَوْجيهاتِهِ ، كَما الْتَزَمَ ثابتٌ وَاسْتَجابَ ، وَلَكِنَّهُ يَنْظُرُ إلى ماضي أَيّامِهِ ، فَيَفْزَعُ فَزَعاً شَديداً ، وَيَمْلأُ الخَوْفُ جَوانِحَهُ ، وَتَسْتَبِدُّ بِهِ الحَسْرَةُ . . إنَّهُ رَجُلٌ جَهيرُ الصَّوْتِ ، وَكَثيراً ما كانَ صَوْتُهُ يَعْلو عَلى صَوْتِ رَسولِ اللهِ ﷺ ؛ وَيوقِنُ « ثابتٌ » أَنَّهُ لا مَحالَةَ - هالِكٌ ؛ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ، وَباءَ بِالخُسْرانِ المُبينِ !

وَلا يَجِدُ « ثابتٌ » وَسيلَةً يُجَدِّدُ بِها تَوْبَتَهُ ، وَيَعْمَلُ عَمَلاً صالِحاً يُرْضاهُ رَبُّهُ ، إلا أَنْ يَحْرِمَ نَفْسَهُ مِنْ مَجالِسِ الرَّسولِ الحَبيبِ ، عَلى الرَّغْمِ مِمّا يَمورُ في صَدْرِهِ مِنْ

شَوْقِ إليهِ ، وَما يَمْتَلِئُ بِهِ قَلْبُهُ مِنْ حَنينٍ نَحْوَهُ ، وَإذا هُوَ يَلْزَمُ دارَهُ ، وَيُغْلِقُ عَلَيْهِ بابَهُ ، وَلا يَخْرُجُ إلا لِيُؤَدِّيَ الصَّلاةَ المَفْروضَةَ !

وَيَفْتَقِدُهُ الرَّسولُ الكَريمُ ، وَيَقولُ لأَصْحابِهِ : « مَنْ يَأْتيني بِخَبَرِهِ ؟ »

وَيَتَقَدَّمُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ لِلْقِيامِ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ .

وَيَذْهَبُ الرَّجُلُ الأَنْصارِيُّ إلى بَيْتِ « ثابتٍ » فَيَجِدُهُ مَهْمومًا مَحْسورًا ، قَدْ أَضْناهُ الحُزْنُ ، وَكادَ يَفْتِكُ بِهِ النَّدَمُ ، فَيَسْأَلُهُ : « ما شَأْنُكَ ، يا ثابِتُ ؟ »

فَيُخْبِرُهُ بِأَمْرِهِ .

وَيَعودُ الرَّجُلُ مُسْرِعًا إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَيُنْبِئُهُ بِما رَأى وَما سَمِعَ .

وَيَأْمُرُهُ الرَّسولُ الرَّحيمُ أَنْ يَعودَ إلى ثابتٍ ، وَيَقولَ لَهُ : « لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النّارِ ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ . »

وَتَرْقُصُ الفَرْحَةُ بَيْنَ جَوانِحِ « ثابتٍ » فَهَذِهِ المَرَّةُ الثّانِيَةُ الَّتي يَتَلَقّى فيها هَذِهِ البُشْرى مِنَ الرَّسولِ الحَبيبِ ، وَيَنْطَلِقُ مِنْ مَحْبَسِهِ إلى الرَّسولِ ﷺ ، يَتَفَيَّأُ ظِلَّهُ ، وَيُطْفِئُ ظَمَأَهُ ، وَيَسْتَمْتِعُ بِجِوارِهِ ؛ فَتَنْدى بِذَلِكَ روحُهُ ، وَيَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ ، وَتَسْكُنُ نَفْسُهُ .

وَشَهِدَ « ثابِتُ بْنُ قَيْسٍ » المَواقِعَ تَحْتَ لِواءِ الرَّسولِ القائِدِ ، يَخوضُ غِمارَها ، وَيُقْحِمُ نَفْسَهُ في أَهْوالِها ، وَهُوَ يَرْجو الشَّهادَةَ الَّتي وَعَدَهُ الرَّسولُ بِها ، وَلَكِنَّهُ كانَ يُخْطِئُها في كُلِّ مَرَّةٍ ، مَعَ شِدَّةِ قُرْبِهِ مِنْها ؛ فَكُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ وَميعادٍ !

وَيَنْتَقِلُ الرَّسولُ الحَبيبُ إلى بارِئِهِ ، وَتَرْتَدُّ القَبائِلُ العَرَبِيَّةُ عَنِ الإسْلامِ ، وَيَكادُ الإسْلامُ يَكونُ مَحْصورًا في مَكَّةَ وَالمَدينَةِ وَالطّائِفِ ، وَيُجَهِّزُ أبو بَكْرٍ الجُيوشَ لِحَرْبِ المُرْتَدّينَ ، وَيَخْرُجُ « ثابتٌ » تَحْتَ قِيادَةِ خالِدِ بْنِ الوَليدِ لِقِتالِ « مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ » ، وَهُوَ أَقْوى المُرْتَدّينَ شَكيمَةً

وَأَكْثَرُهُمْ جُنودًا وَسِلاحًا ، وَيَحْمِلُ ثابِتٌ لِواءَ الأَنْصارِ وَيَروعُهُ ما يَرى !

يَرى بَريقَ النَّصْرِ يَخْطَفُ أَبْصارَ « مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ » وَجُنودِهِ ، فَقَدِ اقْتَحَموا خَيْمَةَ القائِدِ خالِدٍ ، وَمَزَّقوها شَرَّ مُمَزَّقٍ ، وَهَمّوا بِأَسْرِ زَوْجَتِهِ « أُمِّ تَميمٍ » لَوْلا أَنْ أَجارَها واحِدٌ مِنْهُمْ . وَيَرى تَخاذُلَ المُسْلِمينَ وَتَراجُعَهُمْ ؛ فَتَمْتَلِئُ نَفْسُهُ هَمًّا وَكَمَدًا ، وَيَضيقُ صَدْرُهُ ، وَيَنْطَلِقُ لِسانُهُ ، يَصيحُ في القَوْمِ :

يا مَعْشَرَ المُسْلِمينَ : « ما هَكَذا كُنّا نُقاتِلُ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ . . بِئْسَ ما عَوَّدْتُمْ أَعْداءَكُمْ مِنَ الجُرْأَةِ عَلَيْكُمْ . . وَبِئْسَ ما عَوَّدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنَ الانْخِذالِ لَهُمْ . »

ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ إِلى السَّماءِ ، وَكَرَّرَ مَقالَةَ « أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ » مِنْ قَبْلِهِ : « اللَّهُمَّ إِنّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمّا جاءَ بِهِ هَؤُلاءِ (يَعْني المُسْلِمينَ) . »

ثُمَّ هَبَّ هَبَّةَ الأَسَدِ الضّاري ، وَانْطَلَقَ إِلى المَعْرَكَةِ مَعَ

الأَبْطالِ المَغاويرِ ، مِنَ المُسْلِمينَ السّابِقينَ ، كَالبَراءِ بْنِ مالِكٍ الأَنْصارِيِّ ، وَزَيْدِ بْنِ الخَطّابِ ، وَسالِمٍ مَوْلى أَبي حُذَيْفَةَ . . وَسَرى الحَماسُ في جَيْشِ المُسْلِمينَ ، فَانْدَفَعوا بِانْدِفاعِهِمْ ، يَدُكّونَ جَيْشَ « مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ » دَكًّا ، حَتّى حَصَروهُ في حَديقَةِ المَوْتِ ، فَاقْتَحَموها عَلَيْهِ ، وَأَعْمَلوا فيهِ سُيوفَهُمْ .

وَانْجَلَتِ المَعْرَكَةُ عَنْ « ثابِتِ بْنِ قَيْسٍ » وَقَدْ ظَفِرَ بِما وَعَدَهُ الرَّسولُ ﷺ ، وَعَلى شَفَتَيْهِ تَرِفُّ ابْتِسامَةٌ . . ابْتِسامَةُ الشَّهيدِ السَّعيدِ بِلُقْيا الرَّسولِ وَصَحْبِهِ ، بَعْدَ أَنْ حَقَّقَ اللهُ لِلْمُسْلِمينَ النَّصْرَ .

ظَفِرَ « ثابِتٌ » بِالشَّهادَةِ الَّتي كانَ يَرْجوها ، وَتَحَقَّقَتْ لَهُ البُشْرى الَّتي بَشَّرَهُ بِها الرَّسولُ ﷺ ، وَلَكِنَّ اسْتِشْهادَهُ لَمْ يَكُنْ نِهايَةَ قِصَّتِهِ في الحَياةِ ، فَقَدْ كانَتْ عَلَيْهِ دِرْعٌ ثَمينَةٌ نادِرَةٌ ، فَمَرَّ بِهِ أَحَدُ الجُنودِ المُسْلِمينَ - بَعْدَ أَنِ اسْتُشْهِدَ - فَأَخَذَها لِنَفْسِهِ .

وَفي اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ لاستِشهادِهِ رَآهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ في مَنامِهِ ، يَقولُ لَهُ : « أنا ‹‹ ثابِتُ بْنُ قَيْسٍ ›› هَلْ تَعرِفُني ؟ »

قالَ لَهُ الرَّجُلُ : « نَعَمْ . »

قالَ ثابِتٌ : « لَقَدْ مَرَّ بي رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمينَ صِفَتُهُ كَذا وَكَذا ، وَنَزَعَ عَنّي دِرْعي ، وَأَخَذَها لِنَفْسِهِ ، وَخَبَّأَها في خَيْمَتِهِ ، المَوجودَةِ في الجانِبِ الفُلانِيِّ مِنَ المُعَسْكَرِ ، وَوَضَعَها تَحْتَ قِدْرٍ لَهُ ، وَوَضَعَ فَوْقَ القِدْرِ رَحْلَهُ . فاذْهَبْ إلى ‹‹ خالد ›› لِيَبْعَثَ مَنْ يَأخُذُها مِنْهُ . وَإِيّاكَ أَنْ تَقولَ هذا حُلْمٌ فَتَضيعَ الدِّرْعُ .

« هذِهِ واحِدَةٌ ، وَإِلَيْكَ ثانِيَةً :

« قُلْ لِخالِدٍ : إنَّ عَلَيْهِ حينَ يَبْلُغُ المَدينَةَ المُنَوَّرَةَ ، وَيَلْتَقي بالخَليفَةِ ، أَنْ يُخبِرَهُ أَنّي قَدْ أَعْتَقْتُ فُلانًا وَفُلانًا مِنْ عَبيدي ، وَأَنَّ عَلَيَّ دَيْنًا مِقْدارُهُ كَذا لِفُلانٍ ، وَعَلى الخَليفَةِ أَنْ يُحَرِّرَ العَبْدَيْنِ ، وَيَقْضِيَ الدَّيْنَ .

« وَإِيّاكَ ، يا أَخي ، أَنْ تَقولَ هذا حُلْمُ نائِمٍ . »

وَلَمّا أَشْرَقَ الصَّباحُ أَسْرَعَ الرَّجُلُ إلى القائِدِ « خالِدِ بْنِ الوَليدِ » ، فَقَصَّ عَلَيْهِ ما رَأى .

وَاسْتَدْعى « خالِدٌ » أَحَدَ الجُنودِ ، وَأَرْسَلَهُ إلى الرَّجُلِ الَّذي وَصَفَهُ « ثابِتٌ » فَوَجَدَ الدِّرْعَ في مَكانِها الَّذي عَيَّنَهُ ، فَأَخَذَها وَعادَ بِها إلى القائِدِ .

وَلَمّا رَجَعَ « خالِدٌ » إلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ ، أَبْلَغَ الخَليفَةَ وَصِيَّةَ « ثابِتِ بْنِ قَيْسٍ » فَأَجازَ « أَبو بَكْرٍ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَصِيَّتَهُ ، وَأَنْفَذَها كَما أَمْلاها في المَنامِ !

وَما عَرَفَ المُسْلِمونَ أَحَدًا قَبْلَ « ثابِتِ بْنِ قَيْسٍ » وَلا بَعْدَهُ - أُجيزَتْ وَصِيَّتُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ !

فتى بني أَسْلَمَ

(رَبيعَةُ بْنُ كَعْب)

نَشَأَ في قَوْمِهِ بَني أَسْلَمَ في يَثْرِبَ (المَدينة) يَتيمًا فقيرًا ، لا يَجِدُ لَهُ أَبًا يُؤَدِّبُهُ وَيَرْعاهُ ، كَما لا يَجِدُ لَهُ أُمًّا يَسْكُنُ إِلَيْها ، وَتَحنو عَلَيْهِ ؛ فَقَدْ حُرِمَ مِنْهُما وَهُوَ طِفْلٌ صَغيرٌ وَراحَ يَشُقُّ طَريقَهُ في الحَياةِ : يَتَذَوَّقُ مِنْ حَلاوَتِها ما يُباحُ لِأَمْثالِهِ الفُقَراءِ البُسَطاءِ أَنْ يَتَذَوَّقوهُ ، وَيَتَجَرَّعُ مِنْ كُئوسِ مَرارَتِها ما كُتِبَ عَلى الفُقَراءِ البُسَطاءِ أَنْ يَتَجَرَّعوهُ . فَلَمّا بَلَغَ طَورَ الشَّبابِ وَتَجاوَزَ بِداياتِهِ اكْتَحَلَتْ عَيْناهُ بِمَرْأى الرَّسولِ ﷺ . . وَما إِنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْناهُ حَتّى امْتَلأَ قَلْبُهُ بِحُبِّهِ ﷺ ، وَأُولِعَ بِهِ وَلَعًا شَديدًا ، وَسَكَنَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ سُكونًا طَيِّبًا ، فَأَصْبَحَ قَلْبُهُ مَشْدودًا إِلَيْهِ ، شَديدَ التَّعَلُّقِ

بِهِ ، وَالنُّزوعِ إِلَيْهِ . وَغَدَتْ نَفْسُهُ مُتَشَعِّبَةً ذاتَ انْقِسامٍ ، لا تَلْتَئِمُ وَلا تَجْتَمِعُ ، وَلا تَسْكُنُ وَلا تَطْمَئِنُّ إِلا حينَ يَتَّخِذُ صاحِبُها مَجْلِسَهُ مِنَ الرَّسولِ الحَبيبِ !

فَكَّرَ « رَبيعَةُ بْنُ كَعْبٍ » في أَمْرِهِ ، وَعَزَمَ عَلى أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلى الرَّسولِ ﷺ خادِمًا لَهُ ؛ كَيْ يَحْظى بِالقُرْبِ مِنْهُ ، وَيَسْهَرَ عَلى راحَتِهِ ، وَيَنْعَمَ بِدَوامِ صُحْبَتِهِ . لَقَدْ سَيْطَرَ حُبُّهُ عَلى كُلِّ جارِحَةٍ مِنْ جَوارِحِهِ ، وَصَرَفَهُ عَنْ كُلِّ ما عَداهُ !

وَأَجابَهُ الرَّسولُ ﷺ إِلى رَغْبَتِهِ ، وَرَضِيَ بِهِ خادِمًا ؛ فَطابَتْ نَفْسُهُ بِهَذا القَبولِ ، وَسَعِدَتْ روحُهُ بِهَذا المُثولِ ، وَنَذَرَ كُلَّ قُوَّتِهِ لِخِدْمَةِ الرَّسولِ ﷺ .

وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ الحاسِمَةِ في حَياةِ « رَبيعَةَ بْنِ كَعْبٍ » لَزِمَ رَسولَ اللهِ ﷺ ، كَما يَلْزَمُ الإِنْسانَ ظِلُّهُ ، يَسيرُ مَعَهُ أَيْنَما سارَ ، وَيَدورُ في فَلَكِهِ كَيْفَما دارَ ، وَفَهِمَ عَنِ الرَّسولِ الحَبيبِ كَما يَنْبَغي أَنْ يَفْهَمَ الأَتْباعُ الأَبْرارُ . .

كانَ إذا رَمى الرَّسولُ بطَرْفِهِ بادَرَ « رَبيعَةُ » واقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وإذا تَطَلَّعَ لِحاجَةٍ مِنْ حاجاتِهِ أَسْرَعَ « رَبيعَةُ » بِتَلْبِيَتِها ، دونَ حاجَةٍ إلى الإفْصاحِ عَنْها .

كانَ يَعيشُ مَعَ الرَّسولِ الحَبيبِ نَهارَهُ كُلَّهُ ، فَإِذا جَنَّ اللَّيْلُ ، وأوى الرَّسولُ إلى بَيْتِهِ - يَهُمُّ بالانْصِرافِ ، ولَكِنَّهُ كانَ يَعودُ ويَقولُ لِنَفْسِهِ :

« إلى أَيْنَ تَذْهَبُ ، يا رَبيعَةُ ؟ لَعَلَّ الرَّسولَ الحَبيبَ تَعْرِضُ لَهُ حاجَةٌ في اللَّيْلِ ، يَرْغَبُ في قَضائِها ، فَلا يَجِدُ مَنْ يُنْجِزُها لَهُ . . أَقِمْ عَلى بابِهِ ؛ لِتَكونَ سَريعًا في تَلْبِيَةِ رَغْبَتِهِ . »

وهَيَّأَتْ هَذِهِ الإقامَةُ عَلى بابِ البَيْتِ لِرَبيعَةَ فُرْصَةً لا تُتاحُ لِغَيْرِهِ . أَتاحَتْ لَهُ أَنْ يَسْتَمِعَ إلى الرَّسولِ ﷺ وهُوَ يَقومُ اللَّيْلَ ، راكِعًا ساجِدًا لِرَبِّهِ ، حَتّى تَتَوَرَّمَ قَدَماهُ ، فَتَقولُ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها ، وقَدْ تَوَجَّعَتْ لِما أَلَمَّ بِهِ :

« يا رَسولَ اللهِ ، أَرْبِعْ عَلى نَفْسِكَ (أَشْفِقْ عَلى نَفْسِكَ وارْحَمْها) ، أَلَمْ يَغْفِرِ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ ؟ »

فَيُجيبُها ﷺ : « يا عائِشَةُ ، أَفَلا أَكونُ عَبْدًا شَكورًا ؟ »

ويَسْتَمِعُ « رَبيعَةُ » إلى الرَّسولِ الحَبيبِ وهُوَ قائِمٌ يَتْلو فاتِحَةَ الكِتابِ ، ويَظَلُّ يُرَدِّدُها رَدَحًا مِنَ اللَّيْلِ ، يَقولُ رَبيعَةُ : « حَتّى يَغْلِبَني النَّوْمُ . »

ويَسْتَمِعُ إلَيْهِ مَرّاتٍ يَرْفَعُ مِنْ رُكوعِهِ ، ويَقولُ : « سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ . » ويَظَلُّ يُكَرِّرُها زَمَنًا طَويلاً ، قَدْ يَفوقُ زَمَنَ تَرْديدِهِ لِفاتِحَةِ الكِتابِ .

أَقامَ « رَبيعَةُ بْنُ كَعْبٍ » في جِوارِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، ناعِمَ البالِ ، هادِئَ النَّفْسِ ، مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ ، مُطْمَئِنَّ الخاطِرِ ، يَتَفَقَّدُ مَواطِنَ رِضا الرَّسولِ الحَبيبِ ، ويَضَعُها نُصْبَ عَيْنَيْهِ ، فَلا تَقَعُ عَيْنُ الرَّسولِ الحَبيبِ مِنْهُ إلا عَلى عَمَلٍ

طَيِّبٍ ، وَلا يَبْلُغُ سَمْعَهُ مِنْهُ إلا كَلامٌ طَيِّبٌ ، وَلا يَشَمُّ مِنْهُ إلا ريحًا طَيِّبَةً . . كُلُّ هَمِّهِ أَنْ يُرْضِيَ رَسولَ اللهِ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ رَبِّهِ .

وَكانَ مِنْ عادَةِ الرَّسولِ الكَريمِ وَدَأْبِهِ ، أَنْ يُكافِئَ كُلَّ مَنْ يَصْنَعُ لَهُ مَعْروفًا بِأَفْضَلَ مِمّا صَنَعَ وَأَجْزَلَ ، وَفي يَوْمٍ قالَ ﷺ لِرَبيعَةَ :

« يا رَبيعَةُ بْنَ كَعْبٍ ، سَلْني شَيْئًا فَأُعْطِيَكَ إيّاهُ . »

فَأَطْرَقَ رَبيعَةُ قَليلاً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، وَنَظَرَ إلى الرَّسولِ الحَبيبِ نَظْرَةً شاكِرَةً ، وَقالَ :

« أَمْهِلْني يا رَسولَ اللهِ حَتّى أُفَكِّرَ فيما طَلَبْتَهُ مِنّي ، وَسَأُخْبِرُكَ . »

فَقالَ الرَّسولُ الحَبيبُ : « لَكَ ذَلِكَ ، يا رَبيعَةُ بْنَ كَعْبٍ . »

وَشَرَعَ « رَبيعَةُ » يَتَرَوّى في الأَمْرِ ، وَيُطيلُ التَّرْوِيَةَ ،

وَيُديرُ الفِكْرَةَ في رَأْسِهِ ، وَيَقولُ في نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ :

« إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ صاحِبُ مَنْزِلَةٍ وَكَرامَةٍ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَما يَطْلُبُهُ مِنْهُ يُجابُ إلَيْهِ . . وَأَنا شابٌّ فَقيرٌ ، لا أَمْلِكُ مالاً وَلا سَكَنًا ، وَأَعيشُ مَعَ أَهْلِ الصُّفَّةِ ، نَطْعَمُ مِمّا يَتَصَدَّقُ بِهِ المُسْلِمونَ عَلَيْنا ، وَمِمّا يُهْدونَهُ إلى الرَّسولِ الحَبيبِ . . فَماذا لَوْ طَلَبْتُ مِنْهُ بَعْضَ مَتاعِ هَذِهِ الدُّنْيا ، فَيَكونَ لي مالٌ وَمَأْوًى وَزَوْجَةٌ وَذُرِّيَّةٌ كَغَيْري مِنَ المُسْلِمينَ ؟ »

ثُمَّ يُراجِعُ « رَبيعَةُ بْنُ كَعْبٍ » نَفْسَهُ ، وَيَقولُ :

« لا ، لا يَصِحُّ أَنْ يَكونَ المَقامُ مَقامًا تُسْأَلُ فيهِ هَذِهِ الدُّنْيا الفانِيَةُ ، وَمَتاعُها الزّائِلُ ، إنَّ مِنَ الخَيْرِ لي ، وَالأَجْدى عَلَيَّ - أَنْ أَسْأَلَ رَسولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَطْلُبَ لي مِنْ فَضْلِ الآخِرَةِ . »

اِسْتَقَرَّ عَزْمُهُ عَلى ذَلِكَ ، وَطابَتْ نَفْسُهُ بِهِ ، فَجاءَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَابْتَدَرَهُ الرَّسولُ قائِلاً :

« ما تَقولُ ، يا رَبيعَةُ ؟»

قالَ رَبيعَةُ : « يا رَسولَ اللهِ ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَدْعُوَ اللهَ تَعالى أَنْ يَجْعَلَني رَفيقًا لَكَ في الجَنَّةِ . »

تَبَسَّمَ رَسولُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْتِسامَةً راضِيَةً لَهُ :

« مَنْ أَوْصاكَ بِذَلِكَ ، يا رَبيعَةُ ؟»

أَجابَ رَبيعَةُ : « لَمْ يُوصِني أَحَدٌ بِذَلِكَ ، يا رَسولَ اللهِ ، وَكُنْتُ حينَ سَأَلْتَني قَدْ فَكَّرْتُ في شَيْءٍ مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا ، ثُمَّ هَداني اللهُ فَآثَرْتُ الحَياةَ الباقِيَةَ عَلى الحَياةِ الفانِيَةِ ، فَسَأَلْتُكَ مُرافَقَتَكَ في الجَنَّةِ . »

فَصَمَتَ رَسولُ اللهِ ﷺ صَمْتًا طَويلاً ، ثُمَّ حَدَّدَ نَظَرَهُ في « رَبيعَةَ » وَقالَ لَهُ : « أَوَ تَطْلُبُ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ ؟»

فَأَجابَ « رَبيعَةُ » مِنْ فَوْرِهِ : « لا أَعْدِلُ بِمُرافَقَتِكَ في الجَنَّةِ شَيْئًا آخَرَ . »

قالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « إِذًا أَعِنّي عَلى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ

السُّجودِ . »

وَاجْتَهَدَ « رَبيعَةُ » في العِبادَةِ وَالطّاعَةِ ما اسْتَطاعَ إِلى ذَلِكَ سَبيلاً ، كَما رَغِبَ إِلَيْهِ الرَّسولُ الكَريمُ ، كَيْ يَحْظى بِرُفْقَةِ الرَّسولِ في الآخِرَةِ كَما حَظِيَ بِصُحْبَتِهِ في الدُّنْيا !

وَاسْتَقامَتِ الحَياةُ لِرَبيعَةَ بْنِ كَعْبٍ ، فَقَدْ ظَفِرَ أَوْ كادَ بِكُلِّ خَيْرٍ ، وَلَكِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَقِفْ في رِعايَةِ هَذا الصَّحابِيِّ الشّابِّ عِنْدَ هَذا الحَدِّ ، بَلْ أَرادَ لَهُ أَنْ يُمارِسَ حَياتَهُ الطَّبيعِيَّةَ ، وَلا يُخالِفَ الفِطْرَةَ الَّتي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْها ، وَالإِسْلامُ دينُ الفِطْرَةِ . فَدَعا « رَبيعَةَ » ذاتَ يَوْمٍ ، وَقالَ لَهُ : « يا رَبيعَةُ ، أَلا تَتَزَوَّجُ ؟»

فَأَجابَ رَبيعَةُ : « يا رَسولَ اللهِ ، لا أُريدُ أَنْ يَشْغَلَني شَيْءٌ عَنْ خِدْمَتِكَ ثُمَّ إِنَّهُ - كَما تَعْلَمُ - لَيْسَ عِنْدي ما أُقَدِّمُهُ مَهْرًا لِلزَّوْجَةِ ، وَلَيْسَ عِنْدي ما يُقيمُ حَياتَها . »

وَسَكَتَ عَنْهُ رَسولُ اللهِ ﷺ .

وَفي مَرَّةٍ ثانيةٍ قالَ لَهُ الرَّسولُ الكَريمُ :

« يا رَبيعَةُ ، أَلا تَتَزَوَّجُ ؟»

وَكانَ جَوابُ رَبيعَةَ مِثْلَ جَوابِهِ السّابِقِ ، لَكِنَّهُ ما إنْ خَلا بِنَفْسِهِ حَتّى اسْتَعادَ سُؤالَ الرَّسولِ الحَبيبِ ، كَما اسْتَعادَ جَوابَهُ لَهُ ، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ في سِرِّ مُعاوَدَةِ الرَّسولِ قَوْلَهُ ، فَقالَ في نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ :

« لَقَدْ كُنْتُ مُتَسَرِّعًا في جَوابي ، فَرَسولُ اللهِ ﷺ أَعْلَمُ مِنّي بِما يُصْلِحُني في حَياتي : الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنّي لا أَمْلِكُ مِنْ حُطامِ الدُّنْيا شَيْئًا . وَاللهِ لَئِنْ دَعاني إلى الزَّواجِ مَرَّةً أُخْرى لأُجيبَنَّهُ . »

وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى قالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ :

« أَلا تَتَزَوَّجُ يا رَبيعَةُ ؟»

فَأَسْرَعَ رَبيعَةُ بِالْجَوابِ : « بَلى ، يا رَسولَ اللهِ . لَكِنْ مَنْ يُزَوِّجُني وَأَنا كَما تَعْلَمُ ؟»

فَقالَ لَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ : « انْطَلِقْ إلى آلِ فُلانٍ ، وَقُلْ لَهُمْ : إنَّ رَسولَ اللهِ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُزَوِّجوني فَتاتَكُمْ فُلانَةَ . »

فَذَهَبَ « رَبيعَةُ » إلى القَوْمِ الَّذينَ عَيَّنَهُمْ رَسولُ اللهِ لَهُ ، وَلَكِنَّهُ كانَ خَجِلاً حَيِيًّا ، يُقَدِّمُ رِجْلاً وَيُؤَخِّرُ أُخْرى ؛ فَأَمْرُ الرَّسولِ الحَبيبِ مُطاعٌ ، لا يَأْباهُ مُسْلِمٌ ، وَلا يَمْتَنِعُ عَنْ تَلْبِيَتِهِ مُؤْمِنٌ ؛ وَلَكِنَّهُ فَقيرٌ خاوي الوِفاضِ . ماذا يُقَدِّمُ لِلْقَوْمِ ؟ وَلَكِنَّهُ لا يَسْتَطيعُ غَيْرَ الامْتِثالِ وَالإذْعانِ لِما أَمَرَ بِهِ الرَّسولُ ، وَها هُوَذا يَسْعى إلى أَهْلِ الفَتاةِ ، يُبْلِغُهُمْ مَقالَةَ الرَّسولِ ﷺ ، وَإذا القَوْمُ يَسْأَلونَهُ - كَأَنَّما يَسْتَوْثِقونَ مِنْ رَغْبَتِهِ : « ابْنَتُنا فُلانَةُ ؟»

فَيُجيبُهُمْ رَبيعَةُ : « نَعَمْ . »

فَيُرَحِّبونَ بِهِ وَيَحْتَفونَ ، وَيُبالِغونَ في إيناسِهِ وَإكْرامِهِ ، وَيَقولونَ لَهُ : « وَاللهِ لا يَرْجِعُ مَبْعوثُ رَسولِ اللهِ خائِبًا . »

وَيَعْقِدونَ قِرانَهُ عَلَيْها !

وَيَعودُ « رَبيعَةُ » إلى الرَّسولِ الحَبيبِ ، لِيَقولَ لَهُ :

« يا رَسولَ اللهِ ، لَقَدْ جِئْتُ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ أَهْلِ بَيْتٍ . . صَدَّقوا قَوْلي ، وَنَفَّذوا أَمْرَكَ ، وَرَحَّبوا بي ، وَعَقَدوا لي عَلى ابْنَتِهِمْ . . فَمِنْ أَيْنَ آتيهِمْ بِمَهْرِها ؟ »

تَبَسَّمَ الرَّسولُ ﷺ ، وَقالَ لَهُ : « لا تَعْجَلْ ، يا رَبيعَةُ ، فَلَعَلَّ اللهَ يَجْعَلُ لَكَ مَخْرَجًا ! »

وَاسْتَدْعى رَسولُ اللهِ ﷺ « بُرَيْدَةَ بْنَ الخَصيبِ » ، وَهُوَ سَيِّدٌ مِنْ ساداتِ بَني أَسْلَمَ - قَوْمِ رَبيعَةَ - وَأَمَرَهُ أَنْ يَجْمَعَ لِرَبيعَةَ قَدْرَ نَواةٍ مِنَ الذَّهَبِ .

وَلَمّا جَمَعوها لَهُ قالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « اِذْهَبْ بِهَذا إلى أَهْلِ عَروسِكَ ، وَقُلْ لَهُمْ : هَذا صَداقُ ابْنَتِكُمْ . »

ذَهَبَ « رَبيعَةُ » كَما أَمَرَهُ الرَّسولُ الكَريمُ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِمْ ما مَعَهُ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقالوا لَهُ : « كَثيرٌ طَيِّبٌ ! »

وَجاءَ « رَبيعَةُ » إلى رَسولِ اللهِ ﷺ يَقولُ لَهُ :

« يا رَسولَ اللهِ ، ما رَأَيْتُ قَوْمًا أَكْرَمَ مِنْ هَؤُلاءِ النّاسِ ؛ لَقَدْ أَعْطَيْتُهُمْ ما مَعي فَلَمْ يَسْتَقِلّوهُ ، وَإِنَّما كانَ قَوْلُهُمْ : كَثيرٌ طَيِّبٌ . . وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ لي ما أُولِمُ بِهِ ؟ »

فَقالَ الرَّسولُ الحَبيبُ لِـ « بُرَيْدَةَ » :

« اِجْمَعوا لَهُ ، يا بُرَيْدَةُ ، ثَمَنَ كَبْشٍ . »

فَابْتاعوا لَهُ كَبْشًا سَمينًا ، وَأَعْطَوْهُ إِيّاهُ ، فَقالَ لَهُ الرَّسولُ المُعَلِّمُ : « اِذْهَبْ إلى عائِشَةَ ، وَقُلْ لَها : تُعْطيكَ ما عِنْدَها مِنْ شَعيرٍ . »

وَدَفَعَتْ إِلَيْهِ عائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْها - وِعاءَ الشَّعيرِ بِما فيهِ ، فَحَمَلَهُ وَسَحَبَ الكَبْشَ وَراءَهُ ، وَمَضى إلى أَهْلِ عَروسِهِ ، فَقالوا لَهُ : « أَمّا الشَّعيرُ فَنَحْنُ نُعِدُّهُ وَنُجَهِّزُهُ ، وَأَمّا الكَبْشُ فَمُرْ بَعْضَ أَصْحابِكَ يُعِدّونَهُ لَكَ . »

وَانْتَدَبَ لَهُ جَماعَةٌ مِنْ فِتْيانِ بَني أَسْلَمَ ، فَذَبَحوهُ وَسَلَخوهُ وَطَبَخوهُ ، فَأَصْبَحَ وَعِنْدَهُ خُبْزٌ وَلَحْمٌ ، فَأَوْلَمَ

وليمةً جامعةً ، ودعا إليها رسولَ اللهِ ﷺ فأجابه إلى دعوتِه .

ولَمْ يكتفِ الرَّسولُ ﷺ بذلكَ ؛ بلْ أرادَ أنْ يكفُلَ لربيعةَ وزوجِه حياةً هادئةً مُستقرَّةً ، لا يُضنيهمْ فيها البحثُ عن الضروريِّ منَ القوتِ ، فأقطعَهُ أرضًا مُجاورةً لأرضٍ يملكُها أبو بكرٍ رضي الله عنه ، وفي يومٍ اختلفَ « ربيعةُ » معَ « أبي بكرٍ » الصدّيقِ في شأنِ نخلةٍ .

قالَ ربيعةُ : « هيَ في أرضي . »

وقالَ أبو بكرٍ : « بلْ هيَ في أرضي . »

وأفلتتْ في أثناءِ الحديثِ كلمةٌ منْ بينِ شفتيْ أبي بكرٍ - كرِهها ربيعةُ ، فلمّا رأى أبو بكرٍ في وجهِ « ربيعةَ » نفورَهُ منَ الكلمةِ ، وامتعاضَهُ منها - انتبهَ لها ، وطلبَ منْ « ربيعةَ » أنْ يرُدَّ عليه بمثلِها ، حتّى يكونَ قِصاصًا ؛ ولكنَّ « ربيعةَ » أبى أنْ يفعلَ ذلكَ . فقالَ لهُ أبو بكرٍ :

« إذًا أذهبُ إلى رسولِ اللهِ ، وأشكو إليهِ امتناعَكَ عنِ الاقتصاصِ منّي . »

وأسرعَ أبو بكرٍ رضي الله عنه إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، وتبعهُ « ربيعةُ » ، وجاءَ معَ « ربيعةَ » جماعةٌ منْ قومِهِ ، فقالوا لهُ : « هُوَ الّذي بدأكَ بالسبِّ ، ولمْ تردَّ عليهِ قولَهُ ، ثُمَّ يسبقُكَ ويشكوكَ ! »

فقالَ لهُمْ ربيعةُ : « يا قومُ ، إنّهُ أبو بكرٍ . . ارجعوا - يرحمُكُمُ اللهُ - فأخشى أنْ يلتفتَ وراءَهُ ، فيراكُمْ ويظنَّ أنّكُمْ جئتُمْ لنُصرتي . . فيغضبَ ، فيغضبَ رسولُ اللهِ لغضبِهِ ، فيغضبَ اللهُ تعالى لغضبِهما ، فيهلكَ ربيعةُ . . . ارجعوا - يرحمُكُمُ اللهُ - إنّهُ الصدّيقُ ! صاحبُ شيبةِ المُسلمينَ ؛ (شيخُهُمْ) . »

أتى أبو بكرٍ رضي الله عنه رسولَ اللهِ ﷺ فقصَّ عليهِ ما حدثَ ، فرفعَ الرسولُ الرّحيمُ رأسَهُ ، وقالَ :

« ما لكَ بأبي بكرٍ ، يا ربيعةُ ؟ »

قالَ رَبيعَةُ : « يا رَسولَ اللهِ ، أَرادَ مِنّي أَنْ أَرُدَّ عَلَيْهِ كَلِمَةً قالَها لِيَكونَ قِصاصًا ، فَأَبَيْتُ أَنْ أَفْعَلَ . »

وَرَفَّتِ ابْتِسامَةٌ وَضيئَةٌ عَلى وَجْهِ الرَّسولِ المُرَبّي ، وَأَشْرَقَتْ أَساريرُ وَجْهِهِ الكَريمِ ؛ فَأَصْحابُهُ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ مَنْزِلَةَ بَعْضٍ ، وَيُوَقِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا .. ثُمَّ قالَ :

« نَعَمْ ، لا تَقُلْ لَهُ كَما قالَ لَكَ . وَلَكِنْ قُلْ : غَفَرَ اللهُ لَكَ ، يا أَبا بَكْرٍ . »

فَقالَ « رَبيعَةُ » لِأَبي بَكْرٍ : « غَفَرَ اللهُ لَكَ ، يا أَبا بَكْرٍ . »

وَفاضَتْ عَيْنا أَبي بَكْرٍ بِالدُّموعِ حَتّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ (ابْتَلَّتْ) ، وَمَضى وَهُوَ يَقولُ : « جَزاكَ اللهُ عَنّي خَيْرًا ، يا رَبيعَةُ بْنُ كَعْبٍ ! »

المَوْلودُ الأَوَّلُ

(حَكيمُ بْنُ حِزام)

فُتِحَتِ الكَعْبَةُ ذاتَ يَوْمٍ ، وَدَخَلَتْ جَماعَةٌ مِنَ النِّساءِ ؛ لِيَرَيْنَ ما بِداخِلِها ، وَيَتَفَرَّجْنَ عَلَيْها ، وَكانَتْ فيهِنَّ أُمُّهُ ، وَكانَتْ بِهِ حامِلاً ، فَجاءَها المَخاضُ ، وَلَمْ تَسْتَطِعِ الخُروجَ ، فَأَتَوْا بِجِلْدٍ فُرِشَ تَحْتَها ، وَوَضَعَتْ عَلَيْهِ ابْنَها « حَكيمَ بْنَ حِزامِ بْنِ خُوَيْلِدٍ » ، وَكانَ ذَلِكَ قَبْلَ عامِ الفيلِ بِخَمْسِ سَنَواتٍ .

نَشَأَ « حَكيمٌ » كَما يَنْشَأُ لِداتُهُ وَأَمْثالُهُ ، في بيئَةٍ غَنِيَّةٍ مُتْرَفَةٍ ؛ فَهُوَ سَليلُ أُسْرَةٍ ذاتِ حَسَبٍ وَنَسَبٍ ، وَمالٍ كَثيرٍ ، عَمَّتُهُ السَّيِّدَةُ الطّاهِرَةُ خَديجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَعَمُّهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ ، الَّذي عافَ الأَصْنامَ في الجاهِلِيَّةِ ، وَأَنِفَ

مِنْ عِبادَتِها ، وَبَحَثَ عَنْ دينٍ يَطْمَئِنُّ لَهُ قَلْبُهُ ، وَيَسْتَريحُ إِلَيْهِ خاطِرُهُ ، فَدَخَلَ في دينِ النَّصْرانِيَّةِ ، وَشَهِدَ مَطْلَعَ فَجْرِ الإِسْلامِ .

وَلَكِنَّ الغِنى لَمْ يُبْطِرْهُ ، وَالتَّرَفَ لَمْ يُفْسِدْهُ ؛ فَلَمْ يَقْصِدْ إِلى اللَّهْوِ وَالمُجونِ كَما قَصَدَ الكَثيرونَ مِنْ شَبابِ قُرَيْشٍ وَشُيوخِها ، وَلَمْ يُسْرِفْ عَلى نَفْسِهِ في التَّسَلُّطِ وَالتَّجَبُّرِ ، وَإِنَّما كانَ فَتىً أَريبًا رَزينًا ، يَزينُهُ الحِلْمُ وَالوَقارُ ، وَيُصْدِرُ عَنْ عَقْلٍ رَشيدٍ ، وَفِكْرٍ مُسْتَنيرٍ ، فَعَرَفَ لَهُ قَوْمُهُ رَجاحَةَ عَقْلِهِ ، وَحَصافَةَ رَأْيِهِ ، فَسَوَّدوهُ ، وَأَسْنَدوا إِلَيْهِ الرِّفادَةَ ، الَّتي تَخْتَصُّ بِمَعونَةِ الحُجّاجِ الَّذينَ انْقَطَعَتْ بِهِمُ السَّبيلُ ، وَنَفِدَ ما كانَ مَعَهُمْ مِنْ مالٍ ، فَكانَ يُخْرِجُ مِنْ مالِهِ ما يُساعِدُ بِهِ هَؤُلاءِ الحُجّاجَ ، وَيَرْفَعُ عَنْهُمُ الضُّرَّ ، وَيَكْفيهِمْ مَئونَةَ العَوْدَةِ إِلى بِلادِهِمْ .

وَهَذِهِ الشَّمائِلُ الحُلْوَةُ ، وَالأَخْلاقُ السّامِيَةُ ، الَّتي يَتَحَلّى بِها « حَكيمٌ » كانَتْ سَبَبًا في أَنْ تُوَثِّقَ العَلاقَةَ بَيْنَهُ

وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ البَعْثَةِ ، فَالطُّيورُ عَلى أَشْكالِها تَقَعُ كَما يَقولونَ . وَقَدْ كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ - قَبْلَ البَعْثَةِ وَبَعْدَها - الذُّرْوَةَ في سُمُوِّ الأَخْلاقِ ، وَكَريمِ الصِّفاتِ ، وَكانَ القُدْوَةَ وَالمَثَلَ لِكُلِّ شَبابِ قُرَيْشٍ . وَكانَ « حَكيمٌ » يَأْنَسُ إِلَيْهِ ، وَيَخِفُّ إِلى مُجالَسَتِهِ ، وَيَجِدُ مَعَهُ رِضًا وَاطْمِئْنانًا ، وَسَكينَةً وَسَلامًا .

وَزادَ عُرى هَذِهِ الصَّداقَةِ تَوْثيقًا زَواجُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ السَّيِّدَةِ الطّاهِرَةِ خَديجَةَ ، عَمَّةِ حَكيمٍ ، القَريبَةِ إِلى نَفْسِهِ ، الأَثيرَةِ بِوُدِّهِ ، الَّتي يَجِدُ عِنْدَها راحَةَ صَدْرِهِ ، وَسُكونَ خاطِرِهِ ، وَهُدوءَ نَفْسِهِ - كَما كانَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْها تَأْلَفُهُ وَتَرْعاهُ ، وَتَزورُهُ وَتَسْتَزيرُهُ ، وَهُوَ الَّذي أَهْدى إِلَيْها الغُلامَ الأَفْطَسَ الأَسْمَرَ « زَيْدَ بْنَ حارِثَةَ » الَّذي كانَ لَهُ في حَياةِ الرَّسولِ ﷺ شَأْنٌ كَبيرٌ .

لَكِنَّ هَذِهِ العَلاقَةَ الوَطيدَةَ ، وَالصَّداقَةَ المَتينَةَ ، وَالأُلْفَةَ المُسْتَحْكِمَةَ ، بَيْنَ « حَكيمٍ » وَ « مُحَمَّدٍ » ﷺ لَمْ تُفْلِحْ في

أَنْ تدفعَ « بحكيم » إلى الإسْلام فورَ البَعْثَةِ ، كما أَسْلَمَ غَيْرُهُ مِنْ أَشْرافِ قُرَيْشٍ العُقَلاءِ . وَإنْ كانتْ قَدْ حالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يُؤْذِيَ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمينَ أَوْ يُشارِكَ في الإيذاءِ . كَما حَمَلَتْهُ وَحَمَلَهُ بِرُّهُ بِعَمَّتِهِ أَنْ يُعينَ النَّبِيَّ ﷺ وَعَشيرَتَهُ يَوْمَ حاصَرَتْهُمْ قُرَيْشٌ في شِعْبِ أَبي طالِبٍ ، فَكانَ يَبْعَثُ الزّادَ إلَيْهِمْ بَيْنَ الفَيْنَةِ والفَيْنَةِ زاعِمًا أَنَّهُ كانَ لِعَمَّتِهِ عِنْدَهُ ، وَهُوَ يَرُدُّهُ إلَيْها ؛ لِيَسْتَعينَ بِهِ المُحاصَرونَ عَلى ما هُمْ فيهِ مِنْ بُؤْسٍ وَضُرٍّ . وَيُجادِلُهُ أَبو جَهْلٍ في ذَلِكَ ، فَيُسَفِّهُ « حَكيمٌ » رَأْيَهُ ، وَيُقاوِمُ صَدَّهُ ، وَيَبَرُّ صَديقَهُ وَعَمَّتَهُ . . ثُمَّ تَدْفَعُهُ الصَّداقَةُ وَالبِرُّ إلى السَّعْيِ في نَقْضِ صَحيفَةِ المُقاطَعَةِ مَعَ السّاعينَ ، وَالتّآمُرِ عَلَيْها مَعَ المُتآمِرينَ مِنْ عُقَلاءِ قُرَيْشٍ .

يَفْعَلُ « حَكيمٌ » ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَلَكِنَّهُ لا يَدْخُلُ في الإسْلامِ . وَما كانَ « حَكيمٌ » بِالرَّجُلِ الَّذي يَجْهَلُ حَقَّ الإسْلامِ وَحَقيقَتَهُ ، وَصِدْقَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَمانَتَهُ ، وَلَكِنَّهُ

يَرى كَثيرًا مِنْ أَشْرافِ قُرَيْشٍ ، وَذَوي الأَسْنانِ وَالعُقولِ فيها ، وَالمَكانَةِ السّامِيَةِ بَيْنَ كُبَرائِها - يَراهُمْ لا يَدْخُلونَ في الإسْلامِ ، بَلْ وَلا يُفَكِّرونَ بِالدُّخولِ فيهِ . . فَيَتَلَجْلَجُ الإسْلامُ في صَدْرِهِ ، وَلا يَكادُ يَبينُ عَنْ غَمِّهِ ، فَهُوَ في قَلَقٍ مُضْنٍ أَليمٍ ، وَهَمٍّ مُقْعِدٍ مُقيمٍ ، بَيْنَ أَنْ يَظَلَّ مَعَ قُرَيْشٍ السّادِرَةِ في غَيِّها ، وَبَيْنَ أَنْ يُحَرِّرَ نَفْسَهُ مِنْ هَذِهِ الهُمومِ وَالأَوْجاعِ ، وَيَقْطَعَ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ مِنْ رَوابِطَ وَعَلائِقَ ، وَيُعْلِنَ الدُّخولَ في الإسْلامِ .

ظَلَّ « حَكيمٌ » يُعاني مِنْ هَذا الاضْطِرابِ أَمَدًا طَويلًا ، لا تَسْتَقِرُّ بِهِ حالٌ ، وَلا يَهْدَأُ لَهُ بالٌ ، حَتّى جاءَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَدَخَلَ النّاسُ في دينِ اللهِ أَفْواجًا ، فَأَعْلَنَ « حَكيمٌ » إسْلامَهُ ، وَقَدْ مَضى عَلى بَعْثَةِ الرَّسولِ ﷺ ما يَرْبو عَلى العِشْرينَ عامًا !

أَسْلَمَ « حَكيمٌ » إسْلامًا عَميقًا ، وَما كادَتْ بَشاشَةُ الإيمانِ تُخالِطُ قَلْبَهُ ، وَيَتَذَوَّقُ حَلاوَتَهُ - حَتّى أَخَذَ يَعَضُّ

بنانَهُ على بُطْئِهِ ، ويَنْدَمُ نَدَمًا قَوِيًّا صادِقًا على تَأَخُّرِهِ ، وَيَبْكي بُكاءً مُرًّا على تَقاعُسِهِ . . رَآهُ ابْنُهُ يَبْكي وَيَنْتَحِبُ ذاتَ يَوْمٍ ، فَقالَ لَهُ : « ما يُبْكيكَ ، يا أَبَتِ ؟ »

فَقالَ « حَكيمٌ » : « تُبْكيني ، يا بُنَيَّ أَشْياءُ كَثيرَةٌ . »

قالَ الابْنُ : « وَهَلْ لي أَنْ أَعْرِفَ ذَلِكَ ، فَقَدْ أَسْتَطيعُ تَخْفيفَ عِبْئِها عَنْكَ ؟ »

فَأَجابَهُ أَبوهُ : « أَوَّلُها يا بُنَيَّ ، هَذا البُطْءُ في الدُّخولِ في الإِسْلامِ ، فَقَدْ فَوَّتَ عَلَيَّ مَواطِنَ كَثيرَةً ، سَبَقَني إِلَيْها غَيْري مِنَ المُسْلِمينَ ، وَلا أَدْري كَيْفَ أَبْلُغُ مَبْلَغَهُمْ ، أَوْ أُقارِبُ شَأْوَهُمْ ، وَأَحْسَبُني لَوْ أَنْفَقْتُ مالي كُلَّهُ ما بَلَغْتُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ مِمّا بَلَغوهُ !

« وَثانيها - أَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - نَجّاني يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ القَتْلِ وَالأَسْرِ ، كَما نَجّاني يَوْمَ أُحُدٍ ، فَأَقْسَمْتُ أَنْ لا أَخْرُجَ مَعَ قُرَيْشٍ مَرَّةً أُخْرى ، وَأَنْ لا أَنْفِرَ عَلى رَسولِ

اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ أَحَدًا ، وَلَكِنَّ قُرَيْشًا جَرَّتْني إِلى ذَلِكَ جَرًّا ، ما اسْتَطَعْتُ أَنْ أُقاوِمَهُ ، أَوْ أَمْتَنِعَ عَلَيْهِ .

« وَأَمْرٌ ثالِثٌ - يا بُنَيَّ - يَغيظُني غَيْظًا شَديدًا ، وَيَجْعَلُني أَضيقُ بِنَفْسي ضيقًا بالِغًا ، وَيُكَدِّرُ عَلَيَّ ما قَدْ يُتاحُ لي مِنْ ساعاتِ الصَّفاءِ وَالهَناءَةِ . »

قالَ الابْنُ - وَقَدْ عَجِبَ مِنْ أَمْرِ أَبيهِ ، وَزادَ شَوْقُهُ وَتَلَهُّفُهُ لِلْمَعْرِفَةِ : « وَما ذاكَ ، يا أَبَتاهُ ؟ »

قالَ أَبوهُ - وَقَدْ زَفَرَ زَفْرَةً طَويلَةً صَعِدَتْ مِنْ أَعْماقِ صَدْرِهِ :

« ذاكَ يا بُنَيَّ أَنَّني كُنْتُ كُلَّما هَمَمْتُ بِالدُّخولِ في الإِسْلامِ ، وَرَغِبْتُ في أَنْ أُقْحِمَ نَفْسي بَيْنَ أَمْواجِهِ - أَغْراني الشَّيْطانُ بِالنَّظَرِ إِلى قَوْمي ، فَأَرى فيهِمْ بَقايا مِنَ الشُّيوخِ ، لَهُمْ عُقولٌ راجِحَةٌ ، وَآراءٌ سَديدَةٌ صائِبَةٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُسْلِموا . . فَأَقْتَدي بِهِمْ ، وَأَكُفُّ عَمّا

هَمَمْتُ بهِ ! آه يا بُنَيَّ ! ما أَوْرَدَنا التَّهْلُكَةَ إلا الاقْتِداءُ بآبائِنا . يا لَيْتَني ما فَعَلْتُ . . ولَكِنْ لَيْسَتِ السّاعَةُ ساعَةَ النَّدَمِ ! »

وَهَطَلَتِ الدُّموعُ غَزيرَةً مِنْ عَيْنَيْ « حكيم » حَتّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ . . وَلَمْ يُرِدِ الابْنُ أَنْ يَقْطَعَ عَنْ أَبيهِ سَلْوَتَهُ ، فَصَمَتَ احْتِرامًا لِدُموعِ أَبيه ، وَأَتاحَ لَهُ أَنْ يُنَفِّسَ عَنْ كَرْبِهِ ، وَأَنْ يَنْفُثَ ما في صَدْرِهِ .

وَما إنْ سَكَنَتْ دُموعُهُ ، حَتّى بادَرَهُ الابْنُ بقَوْلِهِ : « هَلْ أَدُلُّكَ ، يا أَبَتِ ، عَلى فِعْلٍ تُكَفِّرُ بهِ عَمّا سَبَقَ ؟ »

أَجابَهُ الأَبُ ، وَقَدْ أَضاءَ وَجْهُهُ : « إلَيَّ بهِ ، يا بُنَيَّ ، فَفيكَ حِدَّةٌ وَذَكاءٌ ، وَفِطْنَةٌ وَ مَضاءٌ . »

قالَ الابْنُ : « تُكَفِّرُ عَنْ كُلِّ مَوْقِفٍ وَقَفْتَهُ في الجاهِلِيَّةِ ، وَكُلِّ نَفَقَةٍ أَنْفَقْتَها ضِدَّ الإسْلامِ ، بأَضْعافِ ذَلِكَ في الإسْلامِ ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَكَ ، فَهُوَ التَّوّابُ الرَّحيمُ . »

أَشْرَقَتْ أَساريرُ وَجْهِ حَكيمٍ ، وَتَهَلَّلَتْ ، ثُمَّ قالَ : « للهِ عَلَيَّ ذَلِكَ ، يا بُنَيَّ ! »

وَ وَفّى « حَكيمٌ » بعَهْدِهِ ، وَبَرَّ بقَسَمِهِ :

فَقَدْ حَجَّ بَعْدَ إسْلامِهِ فَساقَ أَمامَهُ مِائَةَ ناقَةٍ ، جَلَّلَها بأَثْوابٍ مَنْقوشَةٍ زاهِيَةٍ ، وَنَحَرَها كُلَّها هَدْيًا في سَبيلِ اللهِ ، وَأَطْعَمَ الفُقَراءَ لُحومَها .

وَفي حَجَّةٍ ثانِيَةٍ وَقَفَ بعَرَفاتٍ في اليَوْمِ التّاسِعِ مِنْ شَهْرِ ذي الحِجَّةِ ، وَأَوْقَفَ مَعَهُ مِائَةً مِنْ عَبيدِهِ ، وَقَدْ جَعَلَ في عُنُقِ كُلٍّ مِنْهُمْ طَوْقًا ، كَتَبَ عَلَيْهِ : « هَذا عَتيقُ اللهِ عَنْ حَكيمِ بْنِ حَزامٍ » . وَأَعْتَقَهُمْ جَميعًا في سَبيلِ اللهِ .

وَيَوْمَ آلَتْ إلَيْهِ دارُ النَّدْوَةِ ، وَأَصْبَحَتْ مِلْكًا خالِصًا لَهُ ، وَكانَتْ هَذِهِ الدّارُ في الجاهِلِيَّةِ مُلْتَقى شُيوخِ قُرَيْشٍ ، وَمَقَرَّ مُشاوَرَتِهِمْ ، وَفيها كانَ تَآمُرُهُمْ عَلى قَتْلِ الرَّسولِ ﷺ لَيْلَةَ الهِجْرَةِ . . حينَ آلَتْ إلَيْهِ مِلْكِيَّتُها باعَها مُسْرِعًا

بِمائَةِ أَلْفِ دِرْهَم ، وَكَأَنَّهُ يَوَدُّ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ هَذا الماضي البَغيضِ ، وَيُسْدِلَ عَلَيْهِ سِتارًا كَثيفًا مِنَ النِّسْيانِ – فَقالَ لَهُ واحِدٌ مِنْ شَبابِ قُرَيْشٍ :

« لَقَدْ بِعْتَ تاريخَ قُرَيْشٍ ، وَمَكْرُمَتَها ، يا عَمِّ ! »

فَرَدَّ عَلَيْهِ « حَكيمٌ » : « ذَهَبَتِ المَكارِمُ ، يا بُنَيَّ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَكْرُمَةٍ يَتَفاضَلُ بِها النّاسُ إلا تَقْوى اللهِ . اِشْهَدوا أَنّي جَعَلْتُ ثَمَنَها في سَبيلِ اللهِ . »

وَقَدْ كانَ الرَّسولُ ﷺ يَعْجَبُ مِنْ بُطْءِ « حَكيم » وَتَأَخُّرِهِ ، لِما كانَ يَراهُ مِنْ رُجْحانِ عَقْلِهِ ، وَسَدادِ رَأْيِهِ ، وَصَوابِ فَهْمِهِ ، وَيَتَساءَلُ :

« كَيْفَ يَخْفى عَلَيْهِ الإسْلامُ ، وَهُوَ عَلى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الوَعْيِ وَالفَهْمِ ؟ لَقَدْ كانَ خَليقًا بِهِ وَبِمَنْ هُمْ عَلى شاكِلَتِهِ أَنْ يُبادِروا بِالدُّخولِ في الإسْلامِ . » وَكانَ ﷺ يَتَمَنّى لَهُ وَلِأَمْثالِهِ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ قالَ في اللَّيْلَةِ الَّتي سَبَقَتْ

فَتْحَ مَكَّةَ :

« إِنَّ بِمَكَّةَ لَأَرْبَعَةَ نَفَرٍ أَرْبَأُ بِهِمْ عَنِ الشِّرْكِ (لا أَرْضاهُ لَهُمْ) ، وَأَرْغَبُ لَهُمْ في الإسْلامِ . »

قيلَ : « وَمَنْ هُمْ يا رَسولَ اللهِ ؟ »

قالَ : « عَتّابُ بْنُ أُسَيْد ، وَجُبَيْرُ بنُ مُطْعِم ، وَحَكيمُ ابنُ حِزام ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو . »

وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ أُمْنِيَةَ رَسولِهِ فَأَسْلَمَ هَؤُلاءِ الأَرْبَعَةُ .

وَكَما بَرَّ « حَكيمٌ » بِالعَهْدِ الَّذي أَبْرَمَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ – بَرَّ بِقَسَمٍ آخَرَ أَقْسَمَهُ عَلى نَفْسِهِ ، وَأَشْهَدَ رَسولَ اللهِ ﷺ عَلَيْهِ .

فَبَعْدَ انْتِصارِ المُسْلِمينَ في غَزْوَةِ حُنَيْنٍ ، سَأَلَ « حَكيمٌ » رَسولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنَ الغَنائِمِ ، وَكانَ حَديثَ عَهْدٍ بِالإسْلامِ ، فَأَعْطاهُ الرَّسولُ الكَريمُ . وَلَكِنَّ « حَكيمًا » لَمْ يَقْنَعْ بِما أَعْطاهُ الرَّسولُ الكَريمُ ، فَسَأَلَهُ مَرَّةً ثانِيَةً أَنْ

يُعْطِيَهُ ، فَأَعْطاهُ حَتّى بَلَغَ مِقْدارُ ما أَعْطاهُ مِائَةَ ناقَةٍ ؛ فَقالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ :

« يا حَكيمُ ، إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ (مُحَبَّبَةٌ إِلى النَّفْسِ) مَنْ أَخَذَها بِسَخاوَةِ نَفْسٍ وَقَناعَةٍ بارَكَ اللهُ لَهُ فيها ، وَمَنْ أَخَذَها بِإِسْرافِ نَفْسٍ وَطَمَعٍ لَمْ يُبارِكِ اللهُ لَهُ فيها ، وَكانَ كَالَّذي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ . . . وَالْيَدُ الْعُلْيا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلى !»

عِنْدَئِذٍ قالَ « حَكيمُ بْنُ حِزامٍ » وَقَدْ تَغَلْغَلَتْ هَذِهِ الْكَلِماتُ في أَعْماقِ نَفْسِهِ :

« يا رَسولَ اللهِ ، وَالَّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لا أَسْأَلُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا ، وَلا آخُذُ مِنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ شَيْئًا . »

وَبَرَّ « حَكيمٌ » بِقَسَمِهِ أَصْدَقَ الْبِرِّ ، وَ وَفّى بِعَهْدِهِ أَبْلَغَ الْوَفاءِ :

فَحينَ انْتَقَلَ الرَّسولُ الْحَبيبُ إِلى بارِئِهِ ، وَ وُلِّيَ أَبو بَكْرٍ

﵁ أَمْرَ الْمُسْلِمينَ ، دَعا « حَكيمَ بْنَ حِزامٍ » لِيَأْخُذَ عَطاءَهُ الْمُحَدَّدَ لَهُ مِنْ بَيْتِ مالِ الْمُسْلِمينَ فَأَبى إِباءً شَديدًا ، وَرَفَضَ رَفْضًا قاطِعًا .

وَلَمّا قَبَضَ اللهُ ، إِلَيْهِ الْخَليفَةَ أَبا بَكْرٍ ، وَ وُلِّيَ عُمَرُ ﵁ الْخِلافَةَ دَعا « حَكيمَ بْنَ حِزامٍ » لِيَأْخُذَ عَطاءَهُ مِنْ بَيْتِ مالِ الْمُسْلِمينَ ، أُسْوَةً بِغَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمينَ جَميعًا ، فَأَبى « حَكيمٌ » أَنْ يَأْخُذَ مِنْ بَيْتِ الْمالِ شَيْئًا ، كَما أَبى في عَهْدِ أَبي بَكْرٍ ﵁ .

وَأَلَحَّ عَلَيْهِ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ عُمَرُ ، لِيُبْرِئَ ذِمَّتَهُ ، وَلِيَنالَ حَقَّهُ كَسائِرِ الْمُسْلِمينَ ، فَما زادَهُ الْإِلْحاحُ إِلا إِباءً وَإِصْرارًا ، فَما كانَ مِنْ عُمَرَ ﵁ إِلا أَنْ وَقَفَ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ في الْمَسْجِدِ وَقالَ :

« أَيُّها النّاسُ ، أُشْهِدُكُمْ أَنَّني دَعَوْتُ ‹‹ حَكيمَ بْنَ حِزامٍ ›› لِيَنالَ عَطاءَهُ مِنْ بَيْتِ مالِ الْمُسْلِمينَ كَما تَنالونَ -

فَأبى ، وَألْحفْتُ عَلَيْهِ فَازْدادَ امْتِناعًا . »

ظَلَّ « حَكيمُ بْنُ حَزام » كَذَلِكَ : يُعْطي وَلا يَأْخُذُ حَتّى فارَقَ هَذِهِ الحَياةَ ، وَانْتَقَلَ إلى بارِئِهِ وَمَوْلاهُ .

فَتى الكُهولِ
(ابْن عَبّاس)

تَعاهَدَتْ قُرَيْشٌ عَلى مُقاطَعَةِ بَني هاشِمٍ وَبَني عَبْدِ المُطَّلِبِ ، عَشيرَةِ الرَّسولِ ﷺ ، وَكَتَبَتْ بِذَلِكَ صَحيفَةً عَلَّقَتْها في الكَعْبَةِ ؛ لِتَكْتَسِبَ القُوَّةَ وَالتَّقْديسَ . وَأَدْرَكَ أَبو طالِبٍ - عَمُّ النَّبِيِّ وَزَعيمُ العَشيرَةِ - أَنَّ قُرَيْشًا قَدْ أَعْلَنَتِ الحَرْبَ عَلَيْهِمْ ؛ فَأَمَرَ قَوْمَهُ - مُؤْمِنَهُمْ وَكافِرَهُمْ - بِأَنْ يَنْحازوا إلى شِعْبِهِ وَمَعَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ لِيُدافِعوا عَنْهُ ، فَلا تَسْتَطيعُ قُرَيْشٌ إِلَيْهِ سَبيلاً .

وَذاقَ المُحاصَرونَ مَرارَةَ الحِرْمانِ ، وَذُلَّ الجوعِ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكْسِرْ حِدَّتَهُمْ ، وَلَمْ يُضْعِفْ قُوَّتَهُمْ ، وَلَمْ يوهِنْ عَزيمَتَهُمْ .

وَفي يَوْم نَظرَ العَبّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِب فَوَجَدَ امرَأتَهُ « أُمَّ الفَضْلِ » تتَلَوّى في خَيْمَتِهِ مِنْ شِدَّةِ الأَلَم ، وَتَضْرِبُ الأَرْضَ بِقَدَمَيْها ، فَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ جاءَها المَخاضُ ، فَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، وَامْتَقَعَ وَجْهُهُ ، وَشَرَدَ ذِهْنُهُ ، يُفَكِّرُ فيما آلَ إلَيْه أَمْرُهُ . . إنَّ « أُمَّ الفَضْلِ » تَضَعُ مولودَها في خَيْمَةٍ مِنْ خِيام المَحْصورينَ ، وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذي أَوْكَلَتْ إلَيْهِ قُرَيْشٌ سِقايَةَ الحُجّاج ، وَقَوافِلُهُ التِّجارِيَّةُ تَجوبُ بِلادَ اليَمَنِ وَالشّام ، وَدارُهُ تَموجُ بِفاخِرِ الأَثاثِ وَالرِّياش !

وَلكِنَّ شُرودَهُ لَمْ يَطُلْ ، وَلَمْ يُفْسِدْ عَلَيْه أَمْرَهُ ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ عَنْ حِلْمِهِ وَوَقارِهِ ؛ فَأَسْرَعَ إلى خَيْمَةِ أَخيهِ « أَبي طالِب » ، وَهُناكَ وَجَدَ الرَّسولَ ﷺ فَطابَتْ نَفْسُهُ ، وَأَشْرَقَ وَجْهُهُ ، وَقالَ :

« إنَّ ‹‹ أُمَّ الفَضْلِ ›› تَضَعُ ما في بَطْنِها . »

وَهُرِعَتِ النِّساءُ إلى خَيْمَةِ العَبّاسِ ، وَفي مُقَدِّمَتِهِنَّ السَّيِّدَةُ الطّاهِرَةُ خَديجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْها ، وَجاءَ الرَّسولُ ﷺ إلى خَيْمَةِ عَمِّهِ ؛ فَقَدْ كانَتْ أُمُّ الفَضْلِ ثانِيَ امْرَأَةٍ آمَنَتْ باللهِ وَرَسولِهِ بَعْدَ الطّاهِرَةِ . وَجَلَسَ العَبّاسُ قَلِقًا مُتَوَتِّرًا ، يَرْنو إلى الخَيْمَةِ وَلا يَطْرِفُ بَصَرُهُ عَنْها . سُمِعَتْ صَرْخَةُ المَوْلودِ مِنْ داخِلِها ، فَمَسَحَتْ ما عَلى وَجْهِهِ مِنْ تَوَتُّرٍ وَغُضونٍ ، وَأَزالَتْ ما شَحَنَ نَفْسَهُ مِنْ قَلَقٍ . . ثُمَّ أَطَلَّتْ جارِيَةٌ مِنْ داخِلِها وَقالَتْ :

« إنَّ أُمَّ الفَضْلِ قَدْ جاءَتْ بِغُلام . »

فَأَشْرَقَ وَجْهُ العَبّاسِ ، وَافْتَرَّ ثَغْرُهُ عَنِ ابْتِسامَةٍ واسِعَةٍ مَلأَتْ مُحَيّاهُ ، وَأَضاءَ البِشْرُ وَجْهَ الرَّسولِ الكَريم .

ثُمَّ أُذِنَ لِلْعَبّاسِ وَلِلرَّسولِ الكَريمِ بِالدُّخول ، وَرَفَعَتِ النِّسْوَةُ المَوْلودَ إلى العَبّاسِ ، فَجاشَتْ نَفْسُهُ بِالحَنان ، وَابْتَسَمَ ابْتِسامَةَ رِضًا وَاطْمِئْنانٍ ، ثُمَّ قَبَّلَ الوَليدَ ، وَقَدَّمَهُ لابْنِ أَخيهِ ، فَضَمَّهُ إلى صَدْرِهِ ، وَقَدْ تَأَلَّقَ في وَجْهِهِ بَريقُ أَمَلٍ وَسُرور ، وَحَنا عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ ، ثُمَّ حَنَّكَهُ وَدَلَكَ حَلْقَهُ بِريقِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْضَعَ ؛ فَكانَ ريقُ النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ ما دَخَلَ

جَوْفَ المَوْلودِ ، ثُمَّ دَعا لَهُ الرَّسولُ ﷺ ، وَوَضَعَهُ - وَهُوَ نائِمٌ إلى جِوارِ أُمِّهِ . . فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ أُمُّ الفَضْلِ ، وَقالَتْ :

« سَمِّهِ ، يا رَسولَ اللهِ . »

وَلَمْ يَضِقِ العَبّاسُ بِذَلِكَ ؛ فَقَدْ كانَ يَعْلَمُ أَنَّ زَوْجَتَهُ عَلى دينِ الإِسْلامِ ، وَكانَ لا يُنْكِرُ عَلَيْها إِسْلامَها ، بَلْ يُعينُها عَلى أَمْرِها ؛ فَقَدْ كانَتْ عَواطِفُهُ مَعَ الإِسْلامِ ، وَإِنْ كانَ لَمْ يُعْلِنِ الشَّهادَةَ بِلِسانِهِ بَعْدُ . . فَقالَ الرَّسولُ ﷺ :

« اِسْمُهُ : عَبْدُ اللهِ . »

كانَ ذَلِكَ قَبْلَ الهِجْرَةِ بِثَلاثِ سَنَواتٍ .

وَما إِنْ بَلَغَ « عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبّاسٍ » السّابِعَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَحُلَّتْ عَنْهُ تَمائِمُهُ - حَتّى لَزِمَ رَسولَ اللهِ ﷺ ، لا يَكادُ يُفارِقُهُ في حِلٍّ أَوْ تَرْحالٍ . . يُعِدُّ لَهُ ماءَ وُضوئِهِ حينَما يَهُمُّ بِالْوُضوءِ ، وَيُصَلّي خَلْفَهُ إِذا أَرادَ الصَّلاةَ ، وَيُسافِرُ مَعَهُ إِذا سافَرَ وَيَكونُ رَديفَهُ . . وَقَدْ وَهَبَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -

ذاكِرَةً واعِيَةً ، وَحافِظَةً لاقِطَةً ، وَعَقْلاً صافِيًا ، وَذِهْنًا مُتَوَقِّدًا ؛ فَحَفِظَ عَنِ الرَّسولِ ﷺ وَوَعى ، حَتّى كانَ مِقْدارُ ما حَفِظَهُ لِلإِسْلامِ وَالمُسْلِمينَ مِنْ حَديثِ الرَّسولِ الكَريمِ أَلْفًا وَسِتَّمائَةٍ وَسِتّينَ حَديثًا ، مَعَ أَنَّ عُمْرَهُ عِنْدَ وَفاةِ الرَّسولِ ﷺ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَجاوَزَ السّابِعَةَ عَشْرَةَ .

وَكانَ « ابْنُ عَبّاسٍ » يُحِبُّ الرَّسولَ ﷺ حُبًّا خالَطَ شِغافَ قَلْبِهِ ، وَمَلَكَ عَلَيْهِ أَقْطارَ نَفْسِهِ ، فَكانَ اللهُ وَرَسولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمّا سِواهُما . وَكانَ يَقِفُ مِنَ الرَّسولِ الحَبيبِ مَوْقِفَ الإِكْبارِ وَالإِجْلالِ ، وَالتَّوْقيرِ وَالتَّعْظيمِ ، كَما عَلَّمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ . . يَقولُ « ابْنُ عَبّاسٍ » رضي الله عنه :

« أَرادَ الرَّسولُ ﷺ ذاتَ مَرَّةٍ أَنْ يَتَوَضَّأَ ، وَأَدْرَكْتُ رَغْبَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ بِها ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ بِالْماءِ ، فَسُرَّ الرَّسولُ الحَبيبُ بِما صَنَعْتُ .

« وَلَمّا وَقَفَ لِلصَّلاةِ أَشارَ إِلَيَّ لأَقِفَ بِإِزائِهِ ، وَلَكِنّي وَقَفْتُ خَلْفَهُ .

« وَحينَ فَرَغَ مِنَ الصَّلاةِ قالَ لي : ‹‹ ما مَنَعَكَ أنْ تقفَ بِجانِبي ، يا عَبْدَ اللهِ ؟ ››

« قُلْتُ : ‹‹ يا رَسولَ اللهِ ، أَنْتَ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ في عَيْني مِنْ أَنْ أُوازِيَكَ . ››

« فَرَفَعَ الرَّسولُ ﷺ يَدَيْهِ إلى السَّماءِ ، وَقالَ : ‹‹ اللَّهُمَّ آتِهِ الحِكْمَةَ . ›› »

وَقَدِ اسْتَجابَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – دُعاءَ نَبِيِّهِ وَضَراعَتَهُ ، فَمَلأَ قَلْبَ الفَتى الهاشِمِيِّ بِالحِكْمَةِ وَالعِلْمِ ، وَالفِقْهِ في الدّينِ ، حَتّى كانَ حَبْرَ الأُمَّةِ الإسْلامِيَّةِ ، وَعالِمَها الَّذي يَجِدُ عِنْدَهُ كُلُّ سائِلٍ لِسُؤالِهِ جَوابًا – حَتّى أَصْبَحَ بَيْتُهُ قِبْلَةَ المُتَعَلِّمينَ ، وَجامِعَةً مُتَكامِلَةً ، لا تَحْوي العَشَراتِ وَالمِئاتِ مِنَ الأَساتِذَةِ وَالمُعَلِّمينَ ، بَلْ هُوَ أُسْتاذُها الوَحيدُ .

يُحَدِّثُ التّاريخُ عَنْ « ابنِ عَبّاسٍ » فَيَقولُ :

إنَّ النّاسَ – الَّذينَ يَرْغَبونَ في العِلْمِ ، وَيَسْعَوْنَ إلَيْهِ –

احْتَشَدوا يَوْمًا أمامَ دارِهِ ، فَسَدَّتْ كَثْرَتُهُمُ الطُّرُقَ المُؤَدِّيَةَ إلَيْها ، فَدَخَلَ إلَيْهِ واحِدٌ مِنْ أَصْحابِهِ المُقَرَّبينَ ، وَقالَ لَهُ :

« إنَّ النّاسَ قَدِ احْتَشَدوا ، يَرْجونَ ما عِنْدَكَ مِنَ العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ ، حَتّى سَدّوا الطَّريقَ إلى بَيْتِكَ . »

فَقالَ لَهُ ابْنُ عَبّاسٍ : « أَحْضِرْ لي ماءً لأَتَوَضَّأَ . »

فَلَمّا أَنْهى وُضوءَهُ قالَ لِصاحِبِهِ : « اُخْرُجْ إلى النّاسِ ، وَقُلْ لَهُمْ : مَنْ كانَ يَرْغَبُ في السُّؤالِ عَنِ القُرْآنِ وَحُروفِهِ (قراءاته) فَلْيَدْخُلْ . »

فَدَخَلَ خَلْقٌ كَثيرونَ مَلَئوا البَيْتَ ، وَما سَأَلوهُ عَنْ شَيْءٍ ، إلا أَجابَهُمْ وَزادَهُمْ . وَلَمّا فَرَغوا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَخْرُجوا ، وَيُفْسِحوا الطَّريقَ لإخْوانِهِمْ .

ثُمَّ قالَ لِصاحِبِهِ : « اُخْرُجْ ، وَقُلْ : مَنْ كانَ عِنْدَهُ مَسْأَلَةٌ في تَفْسيرِ القُرْآنِ وَتَأْويلِهِ فَلْيَدْخُلْ . » فَدَخَلَ خَلْقٌ كَثيرونَ مَلَئوا البَيْتَ ، وَما سَأَلوهُ عَنْ شَيْءٍ إلا أَجابَهُمْ

وَزادَهُمْ . وَلَمّا فَرَغوا أَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجوا ، وَيُفْسِحوا الطَّريقَ لِسِواهُمْ .

ثُمَّ قالَ لِصاحِبِهِ : « اُخْرُجْ ، وَقُلْ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَ في الفِقْهِ وَالحَلالِ وَالحَرامِ فَلْيَدْخُلْ . » فَدَخَلَتْ جَماعَةٌ كَثيرَةٌ مِنَ النّاسِ ، مَلَأَتِ البَيْتَ وَزَحَمَتْهُ ، فَلَمّا فَرَغَ مِنْ إجابَتِهِمْ عَمّا سَأَلوهُ ، وَزادَهُمْ مِنْ عِنْدِهِ ، أَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجوا وَيُفْسِحوا الطَّريقَ لإخْوانِهِمْ .

ثُمَّ قالَ لِصاحِبِهِ : « اُخْرُجْ ، وَقُلْ : مَنْ كانَتْ عِنْدَهُ مَسْأَلَةٌ في عِلْمِ الفَرائِضِ (المَواريث) فَلْيَدْخُلْ . » فَدَخَلَ قَوْمٌ زَحَموا البَيْتَ وَمَلَئوهُ ، فَأَجابَهُمْ عَنْ كُلِّ ما سَأَلوهُ ، وَزادَهُمْ مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجوا ، وَيُفْسِحوا الطَّريقَ لإخْوانِهِمْ .

وَقالَ لِصاحِبِهِ : « اُخْرُجْ ، وَقُلْ : مَنْ كانَتْ عِنْدَهُ مَسْأَلَةٌ في العَرَبِيَّةِ : شِعْرِها وَنَثْرِها ، وَغَريبِ كَلامِها - فَلْيَدْخُلْ . »

فَدَخَلوا ، وَقَدْ زَحَموا البَيْتَ ، وَمَلَئوهُ ، فَما سَأَلوهُ عَنْ شَيْءٍ إلا أَجابَهُمْ . ثُمَّ عَنَّ لابْنِ عَبّاسٍ رَأْيٌ سَديدٌ ، هُوَ أَنْ يُوَزِّعَ العُلومَ عَلى أَيّامِ الأُسْبوعِ ، فَيَجْعَلَ يَوْمًا لِلْقُرْآنِ وَقِراءاتِهِ ، وَيَوْمًا لا يَذْكُرُ فيهِ إلا التَّفْسيرَ وَالتَّأْويلَ . وَذَلِكَ حَتّى يَحُدَّ مِنَ الزِّحامِ أَمامَ دارِهِ ، وَحَتّى لا يَشْغَلَ المُزْدَحِمونَ الطُّرُقاتِ فَيَعوقوا حَرَكَةَ الآخَرينَ .

وَكانَ هَذا العِلْمُ الزّاخِرُ ، وَالحِكْمَةُ الفَيّاضَةُ الَّتي امْتَلأَ بِها قَلْبُ ابْنِ عَبّاسٍ - سَبَبًا في أَنْ يَكونَ مُسْتَشارَ الخَليفَةِ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ حَداثَةِ سِنِّهِ . فَإذا اشْتَدَّ عَلَيْهِ أَمْرٌ ، أَوْ واجَهَتْهُ مُعْضِلَةٌ لَمْ يَجِدْ لَها حَلا - دَعا كِبارَ الصَّحابَةِ ، وَدَعا مَعَهُمُ ابْنَ عَبّاسٍ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ ما أُبْهِمَ عَلَيْهِ ، وَاسْتَفْتاهُمْ فيما أُشْكِلَ عَلَيْهِ .

وَقَدْ عوتِبَ عُمَرُ رضي الله عنه في ذَلِكَ مَرَّةً ؛ فَقَدْ أَدْخَلَ ابْنَ عَبّاسٍ مَعَ أَشْياخِ بَدْرٍ ، فَغَضِبَ بَعْضُهُمْ ، وَقالَ لِعُمَرَ :

« لِمَ تُدْخِلُ هذا معنا ولَنا أَبْناءٌ في مِثْلِ سِنِّه ؟ »

فَدَعاهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذاتَ يَوْمٍ ، وَدَعا مَعَهُمْ ابْنَ عَبّاسٍ ، ثُمَّ طَرَحَ عَلَيْهِمْ سُؤالاً ، فَقالَ :

« ما تَقولونَ في قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلونَ في دينِ اللهِ أَفْواجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إنَّهُ كانَ تَوّابًا . ﴾ »

فَقالَ بَعْضُهُمْ : « إنَّهُ فَتْحُ المَدائِنِ والقُصورِ . »

وَقالَ بَعْضُهُمْ : « إنَّهُ فَتْحُ مَكَّةَ . » وَقالَ بَعْضُهُمْ : « لا نَدْري . »

وَسَكَتَ آخَرونَ ، وَلَمْ يَقولوا شَيْئًا .

فَنَظَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى « ابْنِ عَبّاسٍ » وَقالَ لَهُ : « أَلا تَتَكَلَّمُ ؟ »

فَقالَ « ابْنُ عَبّاسٍ » : « أَعْلَمَ اللهُ رَسولَهُ مَتى يَموتُ ؛ فَقَدْ نَعى إلَيْهِ نَفْسَهُ بِهَذِهِ السّورَةِ . »

وَعَقَّبَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : « ما أَعْلَمُ مِنْها إلا ذَلِكَ . »

ثُمَّ وَجَّهَ حَديثَهُ لِكِبارِ الصَّحابَةِ : « أَرَأَيْتُمْ فَضْلَهُ وَعِلْمَهُ ؟ إنَّهُ فَتى الكُهولِ ، لَهُ لِسانٌ سَئولٌ ، وَقَلْبٌ عَقولٌ . »

وَلَمْ يَغُرَّ هذا التَّقْديرُ ابْنَ عَبّاسٍ ، وَلَمْ يَدْفَعْهُ إلى الكِبْرِ وَالزَّهْوِ ؛ بَلْ زادَهُ تَواضُعًا وَمَعْرِفَةً لِقَدْرِ العُلَماءِ وَمَكانَتِهِمْ ؛ فَقَدْ كانَ يَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ « زَيْدِ بْنِ ثابِتٍ » كاتِبِ الوَحْيِ ، وَجامِعِ القُرْآنِ – كَما يَقِفُ العَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِ ، يُمْسِكُ رِكابَهُ ، وَيَأْخُذُ بِزِمامِ دابَّتِهِ .

فَيَقولُ لَهُ زَيْدٌ : « دَعْ عَنْكَ هَذا ، يا بْنَ عَمِّ رَسولِ اللهِ . »

فَيَقولُ لَهُ ابْنُ عَبّاسٍ : « هَكَذا أُمِرْنا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمائِنا . »

فَيَقولُ لَهُ زَيْدٌ : « أَرِني يَدَكَ . »

فَيُخْرِجُ ابْنُ عَبّاسٍ إلَيْهِ يَدَهُ ، فَيَميلُ عَلَيْها « زَيْدٌ » وَيُقَبِّلُها ، وَيَقولُ لَهُ : « وَهَكَذا أُمِرْنا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ

نَبِيِّنا . »

وَلَمْ يَهْبِطْ هَذا العِلْمُ الغَزيرُ عَلى « ابْنِ عَباسٍ » مِنَ السَّماءِ ، كَما تَهْبِطُ المَلائِكَةُ . وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ الأَرْضِ كَما يَخْرُجُ النَّباتُ ؛ وَإِنَّما سَلَكَ إِلَيْهِ « ابْنُ عَبّاسٍ » كُلَّ سَبيلٍ ، وَبَذَلَ في تَحْصيلِهِ كُلَّ جَهْدٍ ، فَقَدْ نَهَلَ مِنْ مَعينِ رَسولِ اللهِ ﷺ طَوالَ حَياتِهِ ، فَلَمّا مَضى إِلى بارِئِهِ أَخَذَ « ابْنُ عَبّاسٍ » يَطْرُقُ أَبْوابَ عُلَماءِ الصَّحابَةِ ، وَرُبَّما عَلِمَ عَنْ حَديثٍ شَريفٍ عِنْدَ صَحابِيٍّ جَليلٍ ، فَأَتاهُ وَقْتَ القَيْلولَةِ ، فَتَوَسَّدَ رِداءَهُ عَلى بابِ بَيْتِهِ ، وَالرّيحُ تَسْفي عَلَيْهِ مِنَ الرِّمالِ الكَثيرَ ، وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ عَلَيْهِ ، وَبَقِيَ بِالْبابِ حَتّى يَخْرُجَ الصَّحابِيُّ ، فَيَراهُ عَلى هَذِهِ الحالِ ، فَيَقولَ لَهُ :

« يا بْنَ عَمِّ رَسولِ اللهِ ، أَلا بَعَثْتَ في طَلَبي فَآتِيَكَ ؟ »

فَيَقولُ لَهُ ابْنُ عَبّاسٍ : « الْعِلْمُ يُؤْتى إِلَيْهِ وَلا يَأْتي لِأَحَدٍ . »

وَأَعانَهُ في تَحْصيلِ العِلْمِ ، وَسُرْعَةِ الفَهْمِ - خَشْيَتُهُ مِنْ رَبِّهِ ، وَتَقْواهُ ، فَقَدْ كانَ صَوّامًا قَوّامًا ، كَثيرَ البُكاءِ خَشْيَةً للهِ عَزَّ وَ جَلَّ . . حَتّى إِنَّ البُكاءَ أَحْدَثَ في خَدَّيْهِ مَجْرَيَيْنِ ، شَبَّهَهُما بَعْضُ مَنْ رَآهُما بِشِراكَيِ النَّعْلِ (سيورِهِ) .

لَقَدْ عاشَ « ابْنُ عَبّاسٍ » رضي الله عنه إِحْدى وَسَبْعينَ سَنَةً ، مَلأَ الدُّنْيا فيها عِلْمًا ، وَفِقْهًا وَتُقًى ، وَلا يَزالُ العُلَماءُ حَتّى اليَوْمِ يَرْجِعونَ إِلى تَفْسيرِهِ وَفَتاواهُ ، وَيَتَلَقَّوْنَ ما رَواهُ مِنْ حَديثٍ بِالتَّجِلَّةِ وَالإِكْبارِ .

وَبَلَغَ في حَياتِهِ مِنَ المَجْدِ العِلْمِيِّ ما لَمْ يُتَحْ لِسِواهُ ، حَتّى إِنَّهُ حَجَّ ذاتَ مَرَّةٍ ، وَلَيْسَتْ لَهُ إِمْرَةٌ وَلا سُلْطانٌ ، وَكانَ « مُعاوِيَةُ بْنُ أَبي سُفْيانَ » يَحُجُّ ، وَلَهُ مَوْكِبُهُ السُّلْطانِيُّ الكَبيرُ ، وَلَكِنَّ مَوْكِبَ طُلابِ العِلْمِ حَوْلَ عالِمِ الأُمَّةِ كانَ أَعْظَمَ قَدْرًا ، وَأَشَدَّ جَذْبًا لِلنّاسِ ، وَأَبْلَغَ تَفَوُّقًا عَلى مَوْكِبِ الخَليفَةِ السُّلْطانِيِّ .

وَظَلَّ العالِمُ الجَليلُ يَنْفَعُ النّاسَ ، وَيَخْدِمُ الدّينَ حَتّى وافاهُ الأَجَلُ المَحْتومُ ، وَسُمِعَ قارئٌ يَقْرَأُ وَهُمْ يُوارونَهُ التُّرابَ : ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعي إلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً ، فَادْخُلي في عِبادي . وَادْخُلي جَنَّتي . ﴾

الرّاكِبُ المُهاجِرُ
(عِكْرِمَةُ)

القَلَقُ يُمَزِّقُ صُدورَ شُيوخِ قُرَيْشٍ ، وَالظَّمَأُ إلى المَعْرِفَةِ يَفْري أَكْبادَهُمْ ، وَمَرارَةُ الانْتِظارِ تَحْرِقُ قُلوبَهُمْ ! إنَّهُمْ لا يَدْرونَ كَيْفَ يُقابِلونَ هٰذا الجَيْشَ اللَّجِبَ (الكَثيرَ) الَّذي يَقودُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ . لَقَدْ أَخْرَجوهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ مَكَّةَ ذاتَ يَوْمٍ ، مُنْذُ ثَماني سَنَواتٍ . . خَرَجَ مُسْتَخْفِيًا ، وَمَضى في طَريقٍ غَيْرِ مَعْهودٍ وَلا مَأْنوسٍ حَتّى بَلَغَ يَثْرِبَ (المَدينَةَ) ، وَجاءَهُمْ مُنْذُ عامَيْنِ مُعْتَمِرًا فَصَدّوهُ . . أَمّا اليَوْمَ فَلا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ، لَقَدْ تَخَلّى عَنْ مَكَّةَ قائِدُ فُرْسانِها خالِدُ بْنُ الوَليدِ وَعَظيمُ دُهاتِها وَمُفَكِّريها عَمْرُو بْنُ العاصِ ، وَأَصْبَحا في صُفوفِ المُسْلِمينَ . . لَقَدْ أَصْبَحَتْ مَكَّةُ مُفَتَّحَةَ الأَبْوابِ

أمامَ مُحمَّدٍ ﷺ ومَنْ معَهُ مُنْذُ أَسْلَمَ هَذانِ الرَّجُلانِ .

إنَّ شُيوخَ قُرَيْشٍ يَنْتَظِرونَ على أَحَرَّ مِنَ الجَمْرِ عَوْدَةَ أَبي سُفْيانَ ؛ فَقَدْ أَرْسَلوهُ إلى مُحمَّدٍ ﷺ يَسْتَطْلِعُ خَبَرَهُ ، وَيَتَفاوَضُ مَعَهُ . . فَلِماذا غابَ هَذا الأَمَدَ الطَّويلَ ؟

لَقَدْ أَبْطَأَ عَلَيْهِمْ أَبو سُفْيانَ ! وَلَكِنَّهُ عادَ . . عادَ لِيُخْبِرَهُمْ أَنَّ مَنْ لَزِمَ دارَهُ ، وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ دارَ أَبي سُفْيانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَنْ يُقاتِلَ إلا مَنْ يُقاتِلُهُ ، وَأَنَّ مِنَ الخَيْرِ لَنا أَنْ نُلْقِيَ إِلَيْهِ بِمَفاتيحِ مَكَّةَ ؛ فَلَيْسَ لَنا حَوْلٌ وَلا قُوَّةٌ نَسْتَطيعُ بِهِما مُواجَهَةَ هَذا الجَيْشِ الكَثيفِ ، الَّذي يَقودُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ .

وَأُسْقِطَ في يَدِ الشُّيوخِ ، فَلَمْ يَعودوا يَسْتَطيعونَ شَيْئًا ، وَدَخَلَ المُسْلِمونَ مَكَّةَ فاتِحينَ ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ طَريقَهُمْ أَحَدٌ بِقِتالٍ ، إلا « عِكْرِمَةَ بْنَ أَبي جَهْلٍ » !

لَقَدْ كانَ « عِكْرِمَةُ » فارِسَ قُرَيْشٍ ، وَقائِدَ فُرْسانِها ، بَعْدَ أَنْ خَلا المَوْقِعُ بِإِسْلامِ عَمِّهِ « خالِدِ بْنِ الوَليدِ » ، وَقَدْ أَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمَ ، وَأَنْ يُلْقِيَ السِّلاحَ ؛ فَقَدْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِمُحارَبَةِ الإِسْلامِ وَالمُسْلِمينَ .

وَراحَ « عِكْرِمَةُ » يَجْمَعُ فُرْسانَهُ المُقَرَّبينَ ، وَيَتَعاهَدُ مَعَهُمْ عَلى التَّصَدّي لِجَيْشِ المُسْلِمينَ ، وَظَنّوا أَنَّهُمْ قادِرونَ عَلى صَدِّ الجَيْشِ الزّاحِفِ ، وَرَدِّهِ عَلى أَعْقابِهِ مَخْذولاً ، حَتّى إِنَّ واحِداً مِنْهُمْ ، هُوَ « حِماسُ بْنُ خالِدٍ » قالَ لامْرَأَتِهِ :

« سَآتيكِ بِخادِمٍ مِنْ أَتْباعِ مُحَمَّدٍ ! »

وَ وَقَفَ « عِكْرِمَةُ » وَفُرْسانُهُ – وَهُمْ مِنْ أَشَدِّ القُرَشِيّينَ بُغْضاً لِلإِسْلامِ وَالرَّسولِ – وَقَفوا في مَوْضِعٍ يُسَمّى « الخَنْدَمَةَ » ، يَنْتَظِرونَ جَيْشَ المُسْلِمينَ ، وَشاءَتْ حِكْمَةُ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – أَنْ تَكونَ الكَتيبَةُ الإِسْلامِيَّةُ الدّاخِلَةُ بِقِيادَةِ « خالِدِ بْنِ الوَليدِ » ، وَبَيْنَ القائِدَيْنِ قَرابَةٌ وَنَسَبٌ ؛

إذْ في عُروقِهِما تَجْري دِماءُ بَني مَخْزومٍ .

وَكَرَّ « خالدٌ » وَمَنْ مَعَهُ على « عِكْرِمَةَ » وَفُرْسانِهِ ، وَسَرْعانَ ما وَلَّوُا الأَدْبارَ ، وَلاذوا بالْفِرارِ ، وَاسْتَقْبَلَتْ « حماسَ بْنَ خالِدٍ » زَوْجَتُهُ مُتَهَكِّمَةً ساخِرَةً ، تَسْأَلُهُ عَنِ الخادِمِ الَّتي وَعَدَها بِها مِنَ الْمُسْلِمينَ ، فَكانَ جَوابُهُ :

« لَوْ شَهِدْتِ مَعَنا يَوْمَ « الخَنْدَمَةِ » ، وَرَأَيْتِ كَيْفَ فَرَّ صَفْوانُ وَعِكْرِمَةُ ، وَسَمِعْتِ ما كانَ خَلْفَنا مِنْ زَئيرٍ وَغَمْغَمَةٍ - لَما قُلْتِ هَذا الْقَوْلَ ، وَلَما سَخِرْتِ هَذِهِ السُّخْرِيَةَ ! »

* * *

دَخَلَ الرَّسولُ ﷺ مَكَّةَ ، ساجِدًا لِرَبِّهِ ؛ شاكِرًا لَهُ ما أَفاءَ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ ، وَعَفا عَنِ الْمُشْرِكينَ ، ما عَدا جَماعَةً قَليلَةً ، أَهْدَرَ دَمَهُمْ ، وَأَباحَ قَتْلَهُمْ ، وَلَوْ وُجِدوا مُتَعَلِّقينَ بِأَسْتارِ الكَعْبَةِ ، وَعَلى رَأْسِ هَذِهِ الجَماعَةِ القَليلَةِ

« عِكْرِمَةُ » .

وَضاقَتْ مَكَّةُ بِسَيِّدِ بَني مَخْزومٍ ، وَفارِسِ قُرَيْشٍ المِغْوارِ ، وَضاقَتْ طُرُقاتُها بِخُطُواتِ الفارِسِ المُخْتالِ ، وَضاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ! لَقَدْ تَخَلّى عَنْهُ جاهُهُ وَسُلْطانُهُ ، وَأَهْلُهُ ومالُهُ ، فَما لَهُ مِنْ عاصِمٍ يَعْصِمُهُ مِنَ القَتْلِ ، وَما لَهُ مِنْ نَصيرٍ يَنْصُرُهُ على المُسْلِمينَ ! لَيْسَ أَمامَهُ إلا أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَلَدِهِ ، يَخْرُجَ طَريدًا شَريدًا ، لا يَدْري إلى أَيْنَ يَسيرُ ، وَلا يَعْرِفُ أَيْنَ يَسْتَقِرُّ !

وَخَرَجَ « عِكْرِمَةُ » سَيِّدُ بَني مَخْزومٍ مِنْ مَكَّةَ هارِبًا شَريدًا ، تَمْتَزِجُ في نَفْسِهِ الرَّهْبَةُ بِالْجَزَعِ ، وَيَمْتَلِئُ صَدْرُهُ بِالْخَوْفِ وَالْهَلَعِ ؛ فَيَجِدُّ في سَيْرِهِ ؛ لَعَلَّهُ يَبْلُغُ مَأْمَنًا قَبْلَ أَنْ تَنالَهُ سُيوفُ المُسْلِمينَ وَرِماحُهُمْ . وَلَمْ يُفِقْ مِنْ ذُهولِهِ إلا حينَ وَجَدَ نَفْسَهُ على السّاحِلِ أَمامَ البَحْرِ !

جَلَسَ عِكْرِمَةُ عَلى شاطِئِ البَحْرِ ، يُخَطِّطُ في الرِّمالِ

بِعـودٍ في يَدِهِ ، وَيَرْسِمُ خُطوطًا مُـتَـقـاطِعَـةً بالطّول
وَالْعَـرْضِ ، وَيُفَكِّرُ في الهِـجْـرَةِ إلى اليَـمَـنِ ، ثُمَّ إلى
الحَبَشَةِ ، لَعَلَّهُ يَجِدُ هُناكَ مَرْفَأً وَمَلاذًا . وَ تَوارَدَتْ عَلَيْهِ
الخَواطِرُ ، وَتَوالَتْ عَلَيْهِ الأَفْكارُ :

لَقَدْ كانَتْ سِنُّهُ يَوْمَ بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيّا رَسولاً - تَدْنو
مِنَ الثَّلاثينَ ، وَهُوَ صاحِبُ عَقْلٍ رَشيدٍ ، وَفِكْرٍ مُسْتَنيرٍ ،
وَمالٍ وَفيرٍ ، وَسُلْطانٍ كَبيرٍ . . فَلِماذا لَمْ يُسْلِمْ كَما أَسْلَمَ
أَمْثالُهُ ؟ لَقَدْ ناصَبَ أَبوهُ مُحَمَّدًا العَداوَةَ ؛ دِفاعًا عَنِ
الجاهِ وَالسُّلْطانِ ، لا حُبًّا في الآلِهَةِ وَالأَصْنامِ ، وَتَفَنَّنَ
أَبوهُ في إيذاءِ المُسْلِمينَ ، وَخاصَّةً المُسْتَضْعَفينَ ، وَانْحازَ
هُوَ إلى جانِبِ أَبيهِ : يُؤْذي المُسْلِمينَ ما اسْتَطاعَ إلى
الإيذاءِ سَبيلا ، وَيُعينُ عَلى تَعْذيبِهِمْ ما وَسِعَهُ ذَلِكَ .

ثُمَّ جاءَتْ « بَدْرٌ » فَكانَ عَضُدَ أَبيهِ وَساعِدَهُ ، وَرَآهُ
وَهُوَ يَخِرُّ صَريعًا ، يَتَخَبَّطُ في دِمائِهِ ، وَسَمِعَهُ وَهُوَ يَخورُ
كَما يَخورُ الثَّوْرُ ، وَأَعْجَلَتْهُ الهَزيمَةُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحْمِلَ

جُثَّتَهُ ، وَتَرَكَها لِرِمالِ الصَّحْراءِ ، وَطُرِحَتْ في القَليبِ
(البِئْرِ) مَعَ غَيْرِها مِنْ جُثَثِ القُرَشِيّينَ .

وَعادَ إلى مَكَّةَ يُوقِدُ نارَ العَداوَةِ في الصُّدورِ ، وَيُحَضُّ
قُرَيْشًا عَلى أَنْ تُدْرِكَ ثَأْرَها مِنَ المُسْلِمينَ . وَكانَتْ
« أُحُد » ، وَكانَ قائِدًا لِمَيْسَرَةِ الفُرْسانِ الَّذينَ انْتَهَزوا
فُرْصَةَ انْشِغالِ الرُّماةِ المُسْلِمينَ بِجَمْعِ الغَنائِمِ ، وَتَخَلّيهِمْ
عَنْ مَواقِعِهِمْ ، فَالْتَفّوا حَوْلَ المُسْلِمينَ ، وَهَزَموهُمْ .

وَلَمْ يُطِقْ يَوْمَ الخَنْدَقِ صَبْرًا عَلى صَنيعِ المُسْلِمينَ ،
فَبَحَثَ عَنْ مَكانٍ ضَيِّقٍ في الخَنْدَقِ ، وَأَقْحَمَ جَوادَهُ فيهِ
فَاجْتازَهُ ، وَاجْتازَ مَعَهُ جَماعَةٌ مِنَ الفُرْسانِ ، في مُغامَرَةٍ
جَريئَةٍ ذَهَبَ ضَحِيَّتَها « عَمْرو بنُ وُدٍّ » فارِسُ العَرَبِ ،
الَّذي لا يُشَقُّ لَهُ غُبارٌ ، وَلَمْ يُنْجِ « عِكْرِمَةَ » غَيْرُ الفِرارِ !
طافَتْ هَذِهِ الخَواطِرُ بِذِهْنِ « عِكْرِمَةَ » وَهُوَ جالِسٌ عَلى
السّاحِلِ ، لَعَلَّهُ يَجِدُ مَنْ يَنْقُلُهُ بَعيدًا عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ
وَالمُسْلِمينَ . . لَقَدْ حارَبَ الإسْلامَ وَالمُسْلِمينَ ما وَسِعَتْهُ

الحَرْبُ ، وَأنفَقَ في سَبيلِ ذَلِكَ ما أُتيحَ لَهُ الإنْفاقُ ، وَهُوَ الآنَ يَجْني الثَّمَرَةَ حَسْرَةً وَكَمَدًا ، وَحَيْرَةً وَغَمّا ، وَتَشْريدًا وَهَمّا ! لا سَبيلَ لَهُ الآنَ إلى مَكَّةَ ! لَقَدْ سُدَّتْ أَمامَهُ المَسالِكُ ، وَأُخِذَتْ عَلَيْهِ أَفْواهُ الطُّرُقِ !

وَاشْتَدَّ بِهِ الحَنينُ إلى مَكَّةَ ، وَاعْتَصَرَ قَلْبَهُ النَّدَمُ ، وَلَكِنْ حينَ لا يَنْفَعُ النَّدَمُ !

وَبَيْنَما هُوَ غارِقٌ في هَذِهِ الأَفْكارِ أَبْصَرَ سَفينَةً ، فَأَشارَ إلَيْها ، وَأَخَذَ يُساوِمُ بَحّارَها ، فَقالَ لَهُ البَحّارُ :

« أَخْلِصْ وَأَنا أَنْقُلُكَ إلى المَكانِ الَّذي تُريدُهُ . »

قالَ عِكْرِمَةُ : « ماذا تَقْصِدُ بِالإِخْلاصِ ؟ »

قالَ البَحّارُ : « أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إلَهَ إلا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسولُهُ . »

قالَ عِكْرِمَةُ : « ما أَلْجَأَني إلَيْكَ إلا هَذِهِ ! »

وَفي أَثْناءِ هَذِهِ المُحاوَرَةِ ، وَما يَعْتَوِرُها مِنْ شَدٍّ

وَجَذْبٍ ، وَصَلَتْ « أُمُّ حَكيمٍ » زَوْجَةُ « عِكْرِمَةَ » وَابْنَةُ عَمِّهِ « الحارِثِ بْنِ هِشامٍ »

كانَتْ « أُمُّ حَكيمٍ » قَدْ دَخَلَتْ في الإِسْلامِ ، وَبايَعَتِ الرَّسولَ ﷺ ، ثُمَّ قالَتْ لَهُ :

« يا رَسولَ اللهِ ، إنَّ زَوْجي « عِكْرِمَةَ » قَدْ فَرَّ مِنْ وَجْهِكَ ؛ خَشْيَةَ أَنْ تَقْتُلَهُ ، فَأَمِّنْهُ أَمَّنَكَ اللهُ . »

فَقالَ الرَّسولُ الرَّحيمُ : « هُوَ آمِنٌ ، يا أُمَّ حَكيمٍ . »

* * *

تَهَلَّلَتْ أَساريرُ وَجْهِ أُمِّ حَكيمٍ ، وَبَدَتِ البَهْجَةُ عَلَيْها ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَتْ رَسولَ اللهِ ﷺ ، وَخَرَجَتْ مُسْرِعَةً ، تُحاوِلُ اللَّحاقَ بِزَوْجِها قَبْلَ أَنْ تَتَقاذَفَهُ الأَمْواجُ ، وَيَبْتَعِدَ عَنْ طَريقِ الرَّشادِ . وَصَحِبَتْ عَبْدًا رومِيًّا مَعَها ، وَراحَتْ تُسْرِعُ السَّيْرَ .

وَبَيْنَما هُما في الطَّريقِ لَعِبَتْ أَفْكارُ السّوءِ بِعَقْلِ العَبْدِ ،

فَطَمِعَ في سَيِّدَتِهِ ، وَلَكِنَّها كانَتْ فَطِنَةً ذَكِيَّةً ، فَمَنَّتْهُ وَماطَلَتْهُ ، حَتّى بَلَغَتْ حَيّا مِنْ أَحْياءِ العَرَبِ في طَريقِها ، فَأَخْبَرَتْهُمْ خَبَرَهُ ، فَأَوْثَقوهُ وَتَرَكَتْهُ لَدَيْهِمْ أَمانَةً حَتّى تَعودَ. وَجَدَّتْ في سَيْرِها حَتّى بَلَغَتْ زَوْجَها ، فَأَلْفَتْهُ عَلى حالٍ مُؤْسِفَةٍ مِنَ الحُزْنِ وَالنَّدَمِ ، يُفاوِضُ ذَلِكَ البَحّارَ وَيُساوِمُهُ ، فَصاحَتْ بِهِ :

« يا عِكْرِمَةُ ، لَقَدْ جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النّاسِ ، وَأَبَرِّ النّاسِ ، وَأَوْصَلِ النّاسِ . . جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ . اِرْجِعْ فَقَدْ أَمَّنَكَ . »

وَكَأَنَّما انْتَشَلَتْهُ هَذِهِ الكَلِماتُ مِنْ هُوَّةٍ سَحيقَةٍ ، وَلَمْ يُصَدِّقْ أُذُنَيْهِ ، فَاسْتَعادَ قَوْلَها ، فَقالَتْ لَهُ :

« إِي وَاللهِ ، لَقَدِ اسْتَأْمَنْتُهُ لَكَ فَأَمَّنَكَ . اِرْجِعْ لِنَلْقاهُ مَعًا . »

وَعادَ « عِكْرِمَةُ » بِصُحْبَةِ زَوْجِهِ « أُمِّ حَكيمٍ » ، وَفي

الطَّريقِ أَخْبَرَتْهُ خَبَرَ العَبْدِ الرّومِيِّ ، فَعَرَّجا حَيْثُ تَرَكَتْهُ ، وَقَتَلَهُ « عِكْرِمَةُ » قَبْلَ أَنْ يَلْقى رَسولَ اللهِ ﷺ ، وَيُعْلِنَ إِسْلامَهُ .

وَلَمّا دَنا « عِكْرِمَةُ » مِنْ مَكَّةَ نَظَرَ الرَّسولُ الكَريمُ إِلى أَصْحابِهِ ، وَقالَ لَهُمْ :

« سَيَأْتيكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبي جَهْلٍ مُسْلِمًا ، فَلا تَسُبّوا أَباهُ ؛ فَإِنَّ سَبَّ المَيِّتِ يُؤْذي الحَيَّ ، وَلا يَبْلُغُ المَيِّتَ . »

وَما هِيَ إِلا لَحَظاتٌ حَتّى وَصَلَ « عِكْرِمَةُ » ، وَكانَتِ الأَفْكارُ تَدورُ في رَأْسِهِ ، وَتَرُجُّهُ رَجّا عَنيفًا ، حَتّى لَيَكادُ يَنْفَجِرُ . . كَيْفَ يَلْقى مُحَمَّدًا بَعْدَ ما صَنَعَهُ هُوَ وَأَبوهُ بِهِ ؟ كَيْفَ يَلْقى غَيْرَهُ مِنَ المُسْلِمينَ وَقَدْ صَنَعَ بِهِمْ ما صَنَعَ ؟ إِنَّ مِنَ الأَكْرَمِ لَهُ ، وَالأَجْدى عَلَيْهِ أَنْ يَعودَ مِنْ حَيْثُ أَتى ، وَأَنْ يُمْعِنَ في الفِرارِ مِنْ وَجْهِ مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ !

وَكَأَنَّما أَحَسَّتْ زَوْجَتُهُ « أُمُّ حَكيمٍ » ما يُعاني ، وَهِيَ

لَيْسَتْ غَرِيبَةً عَنْهُ ؛ فَفِي عُروقِها - أيضًا - دِماءُ بَني مَخْزومٍ ، فَقالَتْ لَهُ :

« إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ حينَ يُؤَمِّنُ شَخْصًا ، وَيَعْفو عَنْهُ - لا يَنْظُرُ إلى ماضٍ قَدِ انْقَضى ، وَإنَّما يَنْظُرُ إلى مُسْتَقْبَلٍ آتٍ ، فَأَقْبِلْ عَلَيْهِ بِقَلْبٍ مَفْتوحٍ ، وَصَدْرٍ مُنْشَرِحٍ ، وَنَفْسٍ راضِيَةٍ ، وَلا تُهْلِكْ نَفْسَكَ أَسًى عَلى ما فاتَ ! »

وَبَلَغَ « عِكْرِمَةُ » مَجْلِسَ الرَّسولِ ﷺ ، وَإذا الرَّسولُ الكَريمُ يُخْرِجُهُ مِنْ تَوَتُّرِهِ ، وَيَمْسَحُ عَنْ صَدْرِهِ آلامَ نَدَمِهِ ؛ إذْ يَثِبُ إلى لِقائِهِ فَرِحًا بِهِ ، وَيَضُمُّهُ إلى صَدْرِهِ ، وَيَقولُ لَهُ : « مَرْحَبًا بِالرّاكِبِ المُهاجِرِ . »

وَيَنْزاحُ عَنْ صَدْرِ « عِكْرِمَةَ » كُلُّ هَمٍّ ، وَتَنْجابُ عَنْ قَلْبِهِ كُلُّ غِشاوَةٍ ، وَتَنْحَلُّ عُقْدَةُ لِسانِهِ ، وَيَجِدُ الكَلامَ في حَلْقِهِ ، فَيَقولُ : « يا مُحَمَّدُ ، لَقَدْ حَدَّثَتْني أُمُّ حَكيمٍ هَذِهِ أَنَّكَ قَدْ أَمَّنْتَني . »

فَيَقولُ لَهُ الرَّسولُ الكَريمُ الرَّحيمُ : « لَقَدْ صَدَقَتْ ، إنَّكَ آمِنٌ . »

قالَ عِكْرِمَةُ : « إلامَ تَدْعو ، يا مُحَمَّدُ ؟ »

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « أَدْعو إلى أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَأَنّي عَبْدُ اللهِ وَرَسولُهُ ، وَتُقيمَ الصَّلاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكاةَ ، وَتَصومَ رَمَضانَ ، وَتَحُجَّ البَيْتَ الحَرامَ . »

قالَ عِكْرِمَةُ : « وَاللهِ ما دَعَوْتَ إلا إلى خَيْرٍ . »

ثُمَّ أَعْلَنَ إسْلامَهُ .

وَبِذَلِكَ طُوِيَتْ صَحيفَةُ أَبي جَهْلٍ السَّوْداءُ ، لِتَبْدَأَ صَحيفَةٌ جَديدَةٌ مِنْ أَرْوَعِ صَفَحاتِ التّاريخِ المُشْرِقَةِ ، وَصَدَقَتْ رُؤْيا رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَقَدْ كانَ أَخْبَرَ أَصْحابَهُ أَنَّهُ رَأى لِأَبي جَهْلٍ عِذْقًا (غُصْنًا) في الجَنَّةِ ، فَعَجِبوا مِنْ ذَلِكَ عَجَبًا شَديدًا .

ثُمَّ أَرْدَفَ عِكْرِمَةُ ، بَعْدَ أَنْ بايَعَ الرَّسولَ ﷺ :

« يا رَسولَ اللهِ ، لَقَدْ كُنْتَ فينا – قَبْلَ أَنْ تُبْعَثَ – خَيْرَ النّاسِ ، وَأَكْثَرَهُمْ بِرًّا ، وَأَوْفاهُمْ فَضْلاً ، وَأَصْدَقَنا حَديثًا ، وَقَدْ زادَتْكَ النُّبُوَّةُ شَرَفًا وَتَكْريمًا . . فَعَلِّمْني خَيْرَ شَيْءٍ أَقولُهُ . »

فَقالَ لَهُ الرَّسولُ المُعَلِّمُ الكَريمُ :

« تَقولُ : أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ . »

قالَ عِكْرِمَةُ : « ثُمَّ ماذا ، يا رَسولَ اللهِ ؟ »

فَأَجابَهُ الرَّسولُ المُعَلِّمُ الكَريمُ : « ثُمَّ تَقولُ : أُشْهِدُ اللهَ ، وَأُشْهِدُ مَنْ حَضَرَ ، أَنّي مُسْلِمٌ مُجاهِدٌ مُهاجِرٌ . »

فَقالَ « عِكْرِمَةُ » ذَلِكَ .

نَظَرَ إِلَيْهِ الرَّسولُ الرَّحيمُ الكَريمُ مَلِيًّا ، ثُمَّ قالَ لَهُ :

« اليَوْمَ ، يا عِكْرِمَةُ ، لا تَسْأَلُني شَيْئًا أُعْطيهِ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمينَ إِلا أَعْطَيْتُكَ إِيّاهُ . »

فَقالَ « عِكْرِمَةُ » : « يا رَسولَ اللهِ ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَسْتَغْفِرَ اللهَ لي مِنْ كُلِّ عَداوَةٍ عادَيْتُكَ إِيّاها ، وَمِنْ كُلِّ مَقامٍ لَقيتُكَ فيهِ ، وَمِنْ كُلِّ كَلِمَةٍ في حَقِّكَ في وَجْهِكَ أَوْ في غَيْبَتِكَ . »

فَأَجابَهُ الرَّسولُ الرَّحيمُ الكَريمُ إِلى ما طَلَبَ ، وَقالَ :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعِكْرِمَةَ كُلَّ عَداوَةٍ عاداني إِيّاها ، وَاغْفِرْ لَهُ كُلَّ مَوْقِفٍ وَقَفَهُ يُريدُ إِطْفاءَ نورِكَ ، وَاغْفِرْ لَهُ ما نالَ مِنْ عِرْضي في غَيْبَتي أَوْ حُضوري . »

عِنْدَئِذٍ تَهَلَّلَ وَجْهُ « عِكْرِمَةَ » ، وَفاضَ بِشْرًا وَسُرورًا ، ثُمَّ قالَ في بَهْجَةٍ وَانْشِراحٍ :

« يا رَسولَ اللهِ ، وَاللهِ لا أَتْرُكُ نَفَقَةً كُنْتُ أَنْفَقْتُها في الصَّدِّ عَنْ سَبيلِ اللهِ ، إِلا أَنْفَقْتُ ضِعْفَها في سَبيلِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ، وَلا أَدَعُ قِتالاً قاتَلْتُهُ صَدًّا عَنْ سَبيلِ اللهِ ، إِلا قاتَلْتُ ضِعْفَهُ في سَبيلِ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ! »

وَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ انْضَمَّ إِلى مَوْكِبِ المُجاهِدينَ فارِسٌ

باسِلٌ، امْتزجَتِ التَّوبَةُ بكُلِّ ذرَّةٍ مِنْ روحِهِ ، وبِكُلِّ مَكانٍ في جِسْمِهِ ؛ فَلا يُرى إلا قائمًا راكِعًا ساجِدًا ، وَلا يُلْمَحُ إلا وَعَيْناهُ في المُصْحَفِ ، يُرَتِّلُ القُرْآنَ الكَريمَ ، وَيَتَشرَّبُ مَعانِيَهِ ، وَيُنَفِّذُ تَعاليمَهُ . وَلا يَخوضُ المُسْلِمونَ مَعْرَكَةً إلا وَيَكونُ في المُقَدِّمَةِ ، وَلا يَخْرُجونَ في بَعْثٍ إلا وَيَكونُ طَليعَتَهُ !

لَقَدْ بَرَّ « عِكْرِمَةُ » بِما وَعَدَ رَسولَ اللهِ ﷺ ، وَانْتَقَلَ الرَّسولُ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأعْلى وَهُوَ عَنْهُ راضٍ ، وَارْتَدَّتْ بَعْضُ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ عَنِ الإسْلامِ بَعْدَ وَفاةِ الرَّسولِ الكَريمِ . وَعَقَدَ الخَليفَةُ أبو بَكْرٍ ألْوِيَةَ الجُيوشِ لِمُقاتَلَةِ المُرْتَدّينَ ، وَكانَ « عِكْرِمَةُ » واحِدًا مِنْ قادَةِ الجُيوشِ الإسْلامِيَّةِ الضّارِبَةِ .

أرْسَلَهُ أبو بَكْرٍ إلى قِتالِ مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ فَقاتَلَ ما شاءَ اللهُ لَهُ أنْ يُقاتِلَ ، وَإنْ كانَ اللهُ لَمْ يُجْرِ النَّصْرَ في هَذِهِ المَعْرَكَةِ عَلى يَدَيْهِ . وَأرْسَلَهُ إلى عُمانَ فَخاضَ غِمارَ

مَعارِكَ كَثيرَةٍ مَعَ أهْلِها ، حَتّى حَقَّقَ اللهُ عَلى يَدَيْهِ النَّصْرَ ، وَخَضَعَ المُرْتَدّونَ .

وَلَمّا انْتَهَتْ حُروبُ الرِّدَّةِ ، وَاسْتَقَرَّتْ دَوْلَةُ الإسْلامِ - خَرَجَ « عِكْرِمَةُ » مُجاهِدًا في فَتْحِ الشّامِ ، وَكانَ لَهُ في مَوْقِعَةِ اليَرْموكِ الدَّوْرُ البارِزُ الرّائِعُ في سَبيلِ اللهِ :

أقْبَلَ « عِكْرِمَةُ » في ذَلِكَ اليَوْمِ عَلى القِتالِ ، وَكَأنَّهُ ظامِئٌ يُبْصِرُ الماءَ العَذْبَ البارِدَ فَيُريدُ أنْ يَرْتَوِيَ مِنْهُ . . رَأى الكَرْبَ قَدِ اشْتَدَّ بِالمُسْلِمينَ ، وَجَحافِلَ الرّومِ توشِكُ أنْ تُحيطَ بِهِمْ ، فَنَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ ، وَكَسَرَ غِمْدَ سَيْفِهِ ، وَأوْغَلَ في صُفوفِ الرّومِ يَضْرِبُ وَيَطْعَنُ ، وَخالِدُ بْنُ الوَليدِ قائِدُ الجَيْشِ يُناديهِ :

« مَهْلاً ، يا عِكْرِمَةُ ، إنَّ قَتْلَكَ سَيَكونُ عَظيمًا عَلى المُسْلِمينَ ! »

وَهُوَ يَرُدُّ عَلى القائِدِ خالِدٍ : « إلَيْكَ عَنّي ، يا خالِدُ !

لَقَدْ عادَيْتُ أنا وَأَبي الإِسْلامَ فَدَعْني أُكَفِّرْ عَمّا كانَ مِنّي . »

ثُمَّ نَظَرَ « عِكْرِمَةُ » إلى المُسْلِمينَ مِنْ حَوْلِهِ وَقالَ لَهُمْ :

« مَنْ يُبايِعُ عَلى المَوْتِ ؟ »

فَبايَعَهُ عَمُّهُ الحارِثُ بْنُ هِشام ، وَابْنُهُ عُمَرُ ، وَضِرارُ ابْنُ الأَزْوَرِ ، في أَرْبَعِمائَةٍ مِنَ المُسْلِمينَ ، وَدافَعوا عَنْ خَيْمَةِ القائِدِ خالِد بْنِ الوَليدِ دِفاعًا مُسْتَميتًا ، وَأَبْلَوْا في الحَرْبِ بَلاءً حَسَنًا ، حَتّى كَتَبَ اللهُ لِلْمُسْلِمينَ النَّصْرَ .

جَلَسَ القائِدُ خالِدُ بْنُ الوَليدِ في خَيْمَتِهِ ، بَعْدَ أَنِ انْجَلَتْ مَعْرَكَةُ اليَرْموكِ عَنِ النَّصْرِ العَظيمِ لِلإِسْلامِ وَالمُسْلِمينَ . وَبَيْنَما هُوَ مُسْتَغْرِقٌ في شُكْرِ اللهِ عَلى ما أَجْراهُ عَلَيْهِمْ مِنْ نَصْرٍ ، وَما أَسْبَغَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ - إذا هُوَ يَسْمَعُ جَلَبَةً وَضَوْضاءً خارِجَ الخَيْمَةِ ، فَأَرْهَفَ سَمْعَهُ لِيَعْرِفَ الأَمْرَ . . وَما هِيَ إلا لَحْظَةٌ حَتّى دَخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ

الجُنودِ يَحْمِلونَ الرّاكِبَ المُهاجِرَ « عِكْرِمَةَ بْنَ أَبي جَهْلٍ » ، وَقَدْ أَثْخَنَتْهُ الجِراحُ النّافِذَةُ ، فَوَضَعَ القائِدُ خالِدُ رَأْسَهُ عَلى فَخِذِهِ ، وَراحَ يَسْكُبُ في حَلْقِهِ قَطَراتٍ مِنَ الماءِ ، وَيَدْعو اللهَ أَنْ يُسْقِيَهُ مِنْ حَوْضِ الكَوْثَرِ شَرْبَةً لا يَظْمَأُ بَعْدَها أَبَدًا .

النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ

(أبو حُذَيْفَةَ بن عُتْبَةَ)

مَنَحَ اللهُ بَعْضَ النّاسِ حِسّا دَقيقًا ، وَطَبْعًا رَقيقًا ، وَضَميرًا أَبِيّا ، وَقَلْبًا ذَكِيّا . وَآلُ رَبيعَةَ مِنْ هَذا النَّوْعِ مِنَ النّاسِ ، الَّذينَ آتاهُمُ اللهُ نَفْسًا لَوّامَةً ، تَصْحو مَهْما اسْتَبَدَّ بِها النَّوْمُ ، وَتُفيقُ مَهْما طالَتْ بِها الغَفْلَةُ ، وَتُحاكِمُ صاحِبَها في الأُمورِ الدَّقيقَةِ وَالصَّغيرَةِ ، كَما تُحاكِمُهُ في الأُمورِ الجَليلَةِ وَالكَبيرَةِ ، وَتَعودُ بِهِ إلى الرُّشْدِ بَعْدَ الغَيِّ ، وَإلى الهُدى بَعْدَ الضَّلالِ ، وَإلى الاسْتِقامَةِ بَعْدَ الانْحِرافِ .

وَقَدْ كانَ « عُتْبَةُ بْنُ رَبيعَةَ » - وَهُوَ مِنْ أَشْرافِ قُرَيْشٍ وَسادَتِها - يَضيقُ بِما تَفْعَلُهُ قُرَيْشٌ مَعَ الرَّسولِ ﷺ ،

وَأَصْحابِهِ الَّذينَ أَسْلَموا للهِ وُجوهَهُمْ ، وَيُنْكِرُ - فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ - مُعارَضَةَ قُرَيْشٍ وَجُحودَها لِلإسْلامِ ، وَيوقِنُ أَنَّ ما يَدْعو إِلَيْهِ « مُحَمَّدٌ » ﷺ حَقٌّ كُلَّ الحَقِّ ، وَأَنَّ ما تَزْعُمُهُ قُرَيْشٌ باطِلٌ كُلَّ الباطِلِ ، وَأَنَّ شُيوخَها لا يُعارِضونَ الإسْلامَ تَقْديسًا لِلأَصْنامِ ، وَرِعايَةً لِعِبادَتِها ؛ وَإِنَّما يُعارِضونَهُ خَشْيَةً عَلى سُلْطانِهِمْ أَنْ يَزولَ ، وَعَلى كِبْرِيائِهِمْ أَنْ تَضيعَ ! وَلِذَلِكَ كانَ يَعيشُ في هَمٍّ ناصِبٍ ، وَقَلَقٍ دائِمٍ ؛ فَلا هُوَ بِمُسْتَطيعٍ أَنْ يَجْهَرَ في وَجْهِ قُرَيْشٍ بِما يوقِنُ بِهِ ، وَلا هُوَ بِمُسْتَطيعٍ أَنْ يَكْبِتَ هَذا الدَّوِيَّ القائِمَ بَيْنَ جَنَباتِهِ .

كانَتْ هَذِهِ الأَحاديثُ تُلْقى وَتَتَرَدَّدُ في نَفْسِ « عُتْبَةَ بْنِ رَبيعَةَ » ، وَفي نَفْسِ أَخيهِ « شَيْبَةَ » ، وَفي نَفْسِ وَلَدَيْهِ «الوَليدِ وَأَبي حُذَيْفَةَ » . أَمّا « شَيْبَةُ وَالوَليدُ » فَقَدِ اسْتَطاعا أَنْ يُخْفِتا صَوْتَ هَذِهِ الأَحاديثِ ، ثُمَّ يُخْمِداهُ ، وَظَلا عَلى كُفْرِهِما دونَ أَنْ يُقْدِما عَلى إيذاءِ المُسْلِمينَ ، وَأَمّا « أَبو

حُذَيْفَة » فَقَدِ اسْتَعْلَنَ صَوْتُ هَذِهِ الأَحاديثِ في نَفْسِهِ
وَاسْتَعْظَمَ ، فَمَضى إلى رَسولِ اللهِ ﷺ وَأَعْلَنَ إسْلامَهُ ،
كَما أَسْلَمَت مَعَهُ زَوْجَتُهُ « سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْل » وَذاقَ ما
يَذوقُهُ المُسْلِمونَ مِنْ صُنوفِ الإيذاءِ ، وَضُروبِ التَّنْكيلِ ،
فَلَمْ يَضْعُفْ وَلَمْ يَخْضَعْ ، بَلْ ظَلَّ صامِدًا عَلى إيمانِهِ ،
صابِرًا عَلى إيذائِهِ ، مُحْتَسِبًا ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِ .

وَكانَ « أَبو حُذَيْفَةَ » يَرى ما يَعْتَمِلُ في نَفْسِ أَبيهِ ،
وَيُبْصِرُ ما يَمورُ في صَدْرِهِ . . يَراهُ مَرْسومًا عَلى مَلامِحِ
وَجْهِهِ ، وَيُبْصِرُهُ في التَّفْكيرِ العَميقِ الَّذي يَسْتَغْرِقُهُ –
أَحْيانًا – فَيَغْفَلُ عَمَّنْ حَوْلَهُ ، يَرى ذَلِكَ فَيَدْعوهُ إِلى
الإِسْلامِ ، وَيَتْلو عَلَيْهِ بَعْضَ ما حَفِظَ مِنَ القُرْآنِ ، وَلَكِنَّهُ
لا يَبْلُغُ مِنْ أَبيهِ ما يُريدُ !

وَاسْتَمَرَّتْ نَفْسُ « عُتْبَةَ » حائِرَةً قَلِقَةً ، حَتّى أَسْلَمَ
« حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ » ، فَذَهَبَ إِلى الكَعْبَةِ ، وَقَدْ عَزَمَ
عَلى أَمْرٍ . . جَلَسَ في نادي قُرَيْشٍ ، ثُمَّ قالَ لَهُمْ :

« أَرَأَيْتُم لَوْ ذَهَبْتُ إلى « مُحَمَّدٍ » فَكَلَّمْتُهُ ، وَعَرَضْتُ
عَلَيْهِ عُروضًا ، لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَها ، فَنُعْطيهِ ما يَشاءُ ،
وَيَكُفَّ عَنّا ؟ »

قالوا : « قُمْ ، يا أَبا الوَليدِ ، فَكَلِّمْهُ ، وَنَحْنُ نُوافِقُكَ
عَلى ما تَذْهَبُ إِلَيْهِ . »

سَعَى « عُتْبَةُ » إِلى الرَّسولِ ﷺ ، وَكانَ قائِمًا يُصَلّي
قَريبًا مِنْ نادي قُرَيْشٍ ، فَانْتَظَرَهُ حَتّى فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ ، ثُمَّ
جَلَسَ إِلَيْهِ . وَأَخَذَ يُحَدِّدُ النَّظَرَ في وَجْهِهِ ، وَكَأَنَّهُ يَراهُ
لأَوَّلِ مَرَّةٍ . . هَذا هُوَ الوَجْهُ المُضيءُ بِنورِ الإيمانِ ، الَّذي
طالَما حَدَّثَهُ عَنْهُ ابْنُهُ « أَبو حُذَيْفَة » ، ثُمَّ قالَ لَهُ :

« يا بْنَ أَخي ، إِنَّكَ مِنّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ ، مِنَ الحَسَبِ
وَالنَّسَبِ ، وَكَريمِ الصِّفاتِ وَالأَفْعالِ ، وَقَدْ جِئْتَ قَوْمَكَ
بِأَمْرٍ خَطيرٍ : سَفَّهْتَ أَحْلامَهُمْ ، وَعِبْتَ دينَهُمْ وَآلِهَتَهُمْ ،
فَاسْمَعْ مِنّي أُمورًا أَعْرِضُها عَلَيْكَ ، لَعَلَّكَ تَجِدُ فيها خَيْرًا

لنا وَلَكَ . »

فَأجابَهُ الرَّسولُ ﷺ : « قُلْ أَسْمَعْ ، يا أَبا الوَليدِ . »

قالَ عُتْبَةُ : « يا بْنَ أَخي ، إنْ كُنْتَ تُريدُ مِنْ هَذا الأَمْرِ الَّذي جِئْتَ بِهِ مالاً - جَمَعْنا لَكَ مِنْ أَمْوالِنا ما تُريدُ ، حَتّى تَكونَ أَكْثَرَنا مالاً . وَإنْ كُنْتَ تُريدُ مِنْهُ شَرَفًا سَوَّدْناكَ عَلَيْنا ، حَتّى لا نَقْطَعَ أَمْرًا دونَكَ . وَإنْ كُنْتَ تُريدُ مُلْكًا مَلَّكْناكَ عَلَيْنا . وَإنْ كانَ الَّذي يَأتيكَ مَسٌّ مِنَ الجِنِّ ، لا تَسْتَطيعُ رَدَّهُ - الْتَمَسْنا لَكَ الطِّبَّ ، وَبَذَلْنا فيهِ مِنْ أَمْوالِنا حَتّى تَبْرأَ مِنْهُ . »

تَوَقَّفَ « عُتْبَةُ » عَنِ الكَلامِ ، فَقالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ :

« أَوَقَدْ فَرَغْتَ ، يا أَبا الوَليدِ ؟ »

فَأَجابَ « عُتْبَةُ » : « لَقَدْ فَرَغْتُ ، يا بْنَ أَخي . »

فَقالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « إذًا فاسْمَعْ مِنّي . »

قالَ « عُتْبَةُ » : « أَفْعَلُ . »

فَتَلا عَلَيْهِ الرَّسولُ ﷺ كَلامَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَوَّلِ

سورَةِ « فُصِّلَت » :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم . تَنزيلٌ مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيمِ . كِتابٌ فُصِّلَت آياتُهُ قُرآنًا عَرَبيًا لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ . بَشيرًا وَنَذيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعونَ . وَقالوا قُلوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمّا تَدْعونا إلَيْهِ وَفي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إنَّنا عامِلونَ . . ﴾

وَمَضى الرَّسولُ ﷺ في تِلاوَتِهِ ، حَتّى بَلَغَ قَوْلَهُ تَعالى :

﴿ . . فَإنْ أَعْرَضوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمودَ . ﴾

وَإذا « عُتْبَةُ » تَرْتَعِدُ فَرائِصُهُ ، وَيُحاوِلُ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلى فَمِ الرَّسولِ ﷺ ، يَحْبِسُهُ عَنِ التِّلاوَةِ ، وَهُوَ يَقولُ :

« حَسْبُكَ . . أَمْسِكْ ، يا مُحَمَّدُ . »

قالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « أَسَمِعْتَ ، يا أَبا الوَليدِ ؟ »

قالَ « عُتْبَةُ » في صَوْتٍ مُضْطَرِبٍ ، يُنْبِئُ عَنْ نَفْسٍ

حائرةٍ قلقةٍ : « نعمْ ، يا مُحمَّدُ . »

قالَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ : « أَنْتَ وَ ذاكَ ! »

وَنَهَضَ « عُتْبَةُ » مُنْصَرِفًا إلى شُيوخِ قُرَيْشٍ ، فَقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، وَهُمْ يَرَوْنَهُ مُقْبلاً عَلَيْهِمْ :

« نَحْلِفُ بِاللهِ لَقَدْ جاءَكُمْ أَبو الوَليدِ بِغَيْرِ الوَجْهِ الَّذي ذَهَبَ بِهِ . »

جَلَسَ « عُتْبَةُ » يَلْتَقِطُ أَنْفاسَهُ ، فَما زالَتِ الرِّعْدَةُ تَسْري في أَوْصالِهِ ، وَما زالَ الوَعيدُ بِالصّاعِقَةِ يَرِنُّ في أُذُنَيْهِ ، وَما زالَ قَلَقُهُ يَذْهَبُ بِهِ وَيَجيءُ ، وَهُوَ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يُبْرِمَ أَمْرَهُ ، وَلَوْ أَطاعَ فِطْرَتَهُ لأَعْلَنَ إِسْلامَهُ .

قالَ « عُتْبَةُ » لِشُيوخِ قُرَيْشٍ ، بَعْدَ أَنْ هَدَأَتْ نَفْسُهُ :

« يا قَوْمُ ، لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ ‹‹ مُحمَّد ›› قَوْلاً ، ما هُوَ بِالشِّعْرِ ، وَما هُوَ بِالسِّحْرِ ، وَإِنَّ لَهُ لَشَأْنًا عَظيمًا . . وَإِنّي أَنْصَحُ لَكُمْ أَنْ تُخَلّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ما هُوَ فيهِ ، وَتَعْتَزِلوهُ . . فَإِنْ أَصابَتْهُ العَرَبُ ، وَقَضَتْ عَلَيْهِ - كَفَتْكُمْ شَرَّهُ ، وَإِنْ

ظَهَرَ عَلَيْها فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ . »

قالَ القَوْمُ : « لَقَدْ سَحَرَكَ مُحمَّدٌ ، يا أَبا الوَليدِ ! »

قالَ « عُتْبَةُ » : « أَنْتُمْ وَشَأْنَكُمْ ؛ فَقَدْ نَصَحْتُ لَكُمْ ، فاصْنَعوا ما بَدا لَكُمْ ! »

لَمْ تَسْمَعْ قُرَيْشٌ لِحَديثِ « عُتْبَةَ » ، وَلَمْ تَسْتَجِبْ لِنُصْحِهِ ، بَلْ تَمادَتْ في طُغْيانِها ، وَأَسْرَفَتْ في إِيذاءِ المُسْلِمينَ وَالتَّنْكيلِ بِهِمْ ؛ فَأَذِنَ لَهُمُ الرَّسولُ ﷺ بِالهِجْرَةِ إلى الحَبَشَةِ . فَهاجَرَ كَثيرون ، مِنْ بَيْنِهِمْ « أَبو حُذَيْفَةَ بنُ عُتْبَةَ » وَزَوْجَتُهُ « سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ » وَأَقامَ المُسْلِمونَ في الحَبَشَةِ آمِنينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ ، مُطْمَئِنّينَ عَلى عِبادَتِهِمْ ، لا يُؤَرِّقُهُمْ وَيَقُضُّ مَضْجَعَهُمْ ، إلا بُعْدُهُمْ عَنِ الرَّسولِ الحَبيبِ . . فَلَمّا تَناهى إِلَيْهِمْ أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ قَدْ أَسْلَمَ بَعْدَ حَمْزَةَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَسَرَ مِنْ حِدَّةِ قُرَيْشٍ - عادَ بَعْضُهُمْ إلى مَكَّةَ ؛ لِيَنْعَموا بِالقُرْبِ مِنَ الرَّسولِ ﷺ ، وَمِنْ بَيْنِ العائِدينَ « أَبو حُذَيْفَةَ » وَزَوْجَتُهُ .

وَلَكِنَّ « قُرَيْشًا » ما لَبِثَتْ أَنِ اسْتَعادَتْ طُغْيانَها ، بَلِ
ازْدادَتْ ثَوْرَتُها وَغَلَيانُها عَلى « مُحَمَّد » ﷺ وَمَنْ مَعَهُ ،
وَراحَ « أَبو جَهْلٍ » وَعِصابَتُهُ يَفْتَنّونَ في صُنوفِ الإيذاءِ
افْتِنانًا مُنْكَرًا ، وَلا يَجِدونَ مَنْ يَرْدَعُهُمْ ، أَوْ يُخالِفُ لَهُمْ
أَمْرًا . وَ « أَبو حُذَيفَةَ » يَتجَرَّعُ - مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمينَ -
كُئوسَ الْعَذابِ ، وَلا يَسْتَطيعُ أَنْ يُفارِقَ مَصْدَرَ النّورِ مَرَّةً
أُخْرى ، وَيُحاوِلُ جَهْدَهُ أَنْ يَهْدِيَ أَباهُ « عُتْبَةَ » إِلى
الرُّشْدِ ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ يَفيءُ إِلى الصِّراطِ الْمُسْتَقيمِ . وَأَبوهُ
يَحْيا في عَذابٍ نَفْسِيٍّ مُسْتَمِرٍّ ، وَتَنْغيصٍ دائِمٍ لِحَياتِهِ ،
لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَخْطُوَ هَذِهِ الْخُطْوَةَ الَّتي تُخْرِجُهُ مِنَ
الظُّلُماتِ إِلى النّورِ ، يُخيفُهُ الْخُروجُ عَلى دينِ آبائِهِ
وَأَجْدادِهِ ، وَيَروعُهُ ما يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَدَّثَ بِهِ شُيوخُ
قُرَيْشٍ عَنْهُ ! وَ « أَبو حُذَيْفَةَ » ماضٍ في طَريقِهِ ، لا يَكُفُّ
عَنْ دَعْوَتِهِ ، وَلا يَيْئَسُ مِنْ هِدايَتِهِ .

وَكانَ لِما تَموجُ بِهِ نَفْسُ « عُتْبَةَ » مِنْ حَيْرَةٍ وَاضْطِرابٍ ،
بَيْنَ الدُّخولِ في الإِسْلامِ وَالْبَقاءِ عَلى الْكُفْرِ ، وَلِما أَلْقاهُ

ابْنُهُ « أَبو حُذَيْفَةَ » في هَذِهِ النَّفْسِ مِنْ حَديثِ الإيمانِ -
كانَ لِهَذا أَثَرُهُ في تَحْريكِ عاطِفَتِهِ ، وَرِقَّةِ قَلْبِهِ وَإِشْفاقِهِ
عَلى الرَّسولِ ﷺ حينَ خَرَجَ إِلى الطّائِفِ ، يَدْعو أَهْلَها
إِلى الإِسْلامِ ، فَرَدّوهُ رَدًّا قَبيحًا ، وَآذَوْهُ إيذاءً بَشِعًا ،
حَتّى أَلْجَئوهُ إِلى حائِطِ بُسْتانٍ لابْنَيْ رَبيعَةَ : عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ،
وَكانا يَنْظُرانِ ما حَلَّ بِهِ ﷺ ، فَأَرْسَلا قِطْفًا مِنَ الْعِنَبِ ،
مَعَ عَبْدٍ لَهُما اسْمُهُ « عَدّاس » وَشاهَدا عَبْدَهُما يُكِبُّ عَلى
يَدَيْ « مُحَمَّد » ﷺ يُقَبِّلُهُما وَلَمّا عادَ إِلَيْهِما سَأَلاهُ عَنْ
خَبَرِهِ ، فَقالَ لَهُما :

« لَقَدْ حَدَّثَني بِحَديثٍ ما يَعْرِفُهُ إِلا نَبِيٌّ ، وَقَدْ آمَنْتُ بِهِ
فَفي الَّذي جاءَ بِهِ خَيْرُ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ » .

* * *

تَلاحَقَتِ الأَحْداثُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَأَسْلَمَ أَهْلُ يَثْرِبَ
(المدينة) ، وَبايَعوا رَسولَ اللهِ ﷺ عَلى السَّمْعِ وَالطّاعَةِ ،
وَعَلى النُّصْرَةِ وَالْمُؤازَرَةِ ، فَكانَتِ الْهِجْرَةُ ، ثُمَّ كانَتْ
مَوْقِعَةُ بَدْرٍ .

وَفي مَوْقِعَةِ بَدْرٍ خَرَجَ « عُتْبَةُ بْنُ رَبيعَةَ » كارِهًا ، وَكادَتْ أَحاديثُ نَفْسِهِ القَلِقَةِ الحائِرَةِ تَحولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخُروجِ ، لَوْلا الحَمِيَّةُ وَالعَصَبِيَّةُ ! فَلَمّا جاءَ الخَبَرُ أَنَّ القافِلَةَ قَدْ نَجَتْ ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ المُسْلِمونَ الاسْتيلاءَ عَلَيْها - فَكَّرَ بَعْضُ شُيوخِ قُرَيْشٍ في الرُّجوعِ إلى مَكَّةَ ، وَتَجَنُّبِ القِتالِ ، وَكانَ عَلى رَأْسِ الدّاعينَ إلى العَوْدَةِ « عُتْبَةُ بْنُ رَبيعَةَ » ، وَلَكِنَّ « أَبا جَهْلٍ » اتَّهَمَهُ بِالجُبْنِ حينَ رَأى المُسْلِمينَ ، كَما اتَّهَمَهُ بِالخَوْفِ عَلى ابْنِهِ الَّذي يُقاتِلُ في صُفوفِ « مُحَمَّدٍ » وَأَصْحابِهِ . وَفَعَلَ ذَلِكَ فِعْلَهُ في إثارَةِ عَصَبِيَّةِ « عُتْبَةَ » ، وَتَحْميسِهِ لِخَوْضِ المَعْرَكَةِ ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَشَقَّ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يوصَمَ بِالجُبْنِ ، وَأَنْ يَلْزَمَهُ عارُ ذَلِكَ أَبَدَ الدَّهْرِ !

وَخَرَجَ « عُتْبَةُ » بَيْنَ أَخيهِ « شَيْبَةَ » وَابْنِهِ « الوَليدِ » خَرَجوا يَطْلُبونَ المُبارَزَةَ ، كَما كانَتْ عادَةُ القَوْمِ في بَدْءِ المَعْرَكَةِ . . وَ « أَبو حُذَيْفَةَ » في صُفوفِ المُسْلِمينَ يَرى أَباهُ وَأَخاهُ وَعَمَّهُ أَوَّلَ الخارِجينَ مِنْ صُفوفِ المُشْرِكينَ ، وَأَوَّلَ

الدّاعينَ إلى المُبارَزَةِ ؛ فَيَغْتَمُّ لِذَلِكَ اغْتِمامًا شَديدًا . . إنَّ أَباهُ قَدْ خَرَجَ مُسْتَكْرَهًا ، وَهُوَ يُدْرِكُ إدْراكًا قَوِيًّا - لا مِرْيَةَ فيهِ وَلا شَكَّ - أَنَّ الإسْلامَ حَقٌّ ، وَأَنَّ عِبادَةَ الأَصْنامِ باطِلٌ ، فَلِماذا يُخاطِرُ بِهَذا اليَقينِ ، وَيُغامِرُ في سَبيلِ الباطِلِ ، فَيُقْتَلَ فَيُخَلَّدَ في النّارِ ؟ وَطَلَبَ مِنَ الرَّسولِ ﷺ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ في مُبارَزَةِ أَبيهِ ، وَلَكِنَّ الرَّسولَ الكَريمَ مَنَعَهُ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إلا الطّاعَةُ وَالرِّضا .

وَكانَتِ الأَفْكارُ كَذَلِكَ - تَروحُ وَتَجيءُ في نَفْسِ « عُتْبَةَ » : لِماذا يُلِحُّ في اتِّباعِ الباطِلِ ؟ وَماذا يَكونُ مَوْقِفُهُ إذا بارَزَهُ ابْنُهُ ، فَقَتَلَ أَحَدُهُما الآخَرَ ؟ وَماذا في العَيْشِ مِنْ خَيْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ لَقَدْ كانَتْ نَفْسُهُ قَلِقَةً حائِرَةً ، وَكانَتْ أَعْصابُهُ مُتَوَتِّرَةً ضائِقَةً ، وَلَكِنَّهُ « أبو جهلٍ » هَذا الشَّيْطانُ الَّذي نَفَخَ في نارِ العَصَبِيَّةِ فَأَوْقَدَها ، وَفي نارِ الحَمِيَّةِ فَأَشْعَلَها .

وَيَقِفُ « أَبو حُذَيْفَةَ » يَنْظُرُ إلى المُبارَزَةِ ، وَيَرى الدّائِرَةَ تَدورُ عَلى أَبيهِ وَعَمِّهِ وَأَخيهِ ، يَراهُمْ جَميعًا وَقَدْ قُتِلوا

بِسُيوفِ المُسْلِمينَ ، فَيَنْتابُ نَفْسَهُ هَمٌّ أَليمٌ ، وَغَيْظٌ شَديدٌ!

ثُمَّ يَزْحَفُ الجَيْشانِ لِتَلْتَقِيَ السُّيوفُ بِالسُّيوفِ ، وَتَلْتَحِمَ الصُّفوفُ بِالصُّفوفِ ، وَإِذا الرَّسولُ ﷺ يَقولُ : « . . مَنْ لَقِيَ العَبّاسَ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَلا يَقْتُلْهُ ؛ فَإِنَّما خَرَجَ مُسْتَكْرَهًا . » وَيَسْمَعُ « أَبو حُذَيْفَةَ » قَوْلَ الرَّسولِ ﷺ ، وَتَثورُ في نَفْسِهِ انْفِعالاتٌ شَتّى ، وَعَواطِفُ مُتَبايِنَةٌ ، وَيَذْكُرُ أَنَّ أَباهُ - أَيْضًا - قَدْ خَرَجَ مُسْتَكْرَهًا ، فَلِماذا لَمْ يَأْمُرِ الرَّسولُ بِعَدَمِ قَتْلِهِ ؟ وَيَنْسى في غَمْرَةِ هَذا المَزيجِ المُتَبايِنِ مِنَ العَواطِفِ وَالانْفِعالاتِ أَنَّ أَباهُ هُوَ الَّذي حَرَّضَ عَلى القِتالِ ، وَسَعى إِلَيْهِ . . وَتَصْدُرُ عَنْهُ كَلِمَةٌ ، لا يَدْري كَيْفَ خَرَجَتْ مِنْ فَمِهِ ، وَلا كَيْفَ جَرَتْ عَلى لِسانِهِ . إِنَّهُ يُعارِضُ الرَّسولَ ﷺ ، وَيَقولُ لَهُ : « أَنَقْتُلُ آباءَنا وَإِخْوَتَنا ، وَنَتْرُكُ العَبّاسَ ؟ وَاللهِ لَئِنْ لَقيتُهُ لَأُلْجِمَنَّهُ (لَأَقْتُلَنَّهُ) بِالسَّيْفِ . »

وَيَصُكُّ هَذا القَوْلُ سَمْعَ الرَّسولِ ﷺ ، فَيُنادي عُمَرَ ، وَيَقولُ لَهُ : « يا أَبا حَفْصٍ ، أَيُضْرَبُ وَجْهُ عَمِّ رَسولِ اللهِ

بِالسَّيْفِ ؟ »

وَيَقولُ عُمَرُ : « دَعْني أَضْرِبْ عُنُقَهُ ، فَوَاللهِ لَقَدْ نافَقَ . »

وَلَكِنَّ الرَّسولَ المُعَلِّمَ وَالمُرَبِّيَ يُدْرِكُ ما يَثورُ في نَفْسِ « أَبي حُذَيْفَةَ » مِنْ مَشاعِرَ ، وَما يَجيشُ في صَدْرِهِ مِنَ انْفِعالاتٍ ، فَيَقولُ لِعُمَرَ في نَبْرَةٍ حانِيَةٍ مُشْفِقَةٍ :

« دَعْهُ ، فَقَدْ رَأى مَصْرَعَ أَبيهِ ! »

وَثابَ « أَبو حُذَيْفَةَ » إِلى رُشْدِهِ ، أَوْ ثابَ رُشْدُهُ إِلَيْهِ ، وَأَحَسَّ في أَعْماقِهِ بِالخَطَإِ الشَّنيعِ الَّذي ارْتَكَبَهُ ، وَالجُرْمِ الفَظيعِ الَّذي اقْتَرَفَهُ . وَراحَتْ نَفْسُهُ اللَّوّامَةُ تُؤَنِّبُهُ عَلى ذَلِكَ تَأْنيبًا موجِعًا : لَقَدِ انْطَلَقَتْ مِنْ لِسانِهِ كَلِمَةٌ كَالقَذيفَةِ ، تُؤْذي مَشاعِرَ رَسولِ اللهِ ﷺ . لَقَدْ أَصْبَحَ شَأْنُهُ شَأْنَ المُنافِقينَ في المَدينَةِ ، الَّذينَ يُؤْذونَ رَسولَ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ . كَيْفَ يُبيحُ لِنَفْسِهِ المُوازَنَةَ بَيْنَ « العَبّاسِ » عَمِّ الرَّسولِ الكَريمِ ، الَّذي أَسْلَمَ وَكَتَمَ إِسْلامَهُ ، وَتَوَلّى تَثْبيطَ هِمَّةِ النّاسِ عَنِ الرَّسولِ وَالمُسْلِمينَ ، وَهُوَ قَلَمٌ

المُخابَراتِ في مَكَّةَ ، الَّذي يَبْعَثُ بِأَخْبارِها إلى الرَّسولِ في المَدينَةِ ؟ كَيْفَ يُوازِنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبيهِ الَّذي لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُفْصِحَ عَمّا يَسْتَيْقِنُ أَنَّهُ الحَقُّ ، وَلَبِثَ مُتَرَدِّدًا حائِرًا بَيْنَ الإسْلامِ وَالكُفْرِ ، يَدْفَعُهُ عَقْلُهُ إلى الرُّشْدِ ، وَتَشُدُّهُ العَصَبِيَّةُ إلى الضَّلالِ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الصُّفوفِ يَدْعو إلى المُبارَزَةِ ، قَبْلَ أَنْ يَدْعُوَهُ أَحَدٌ مِنَ المُسْلِمينَ إلَيْها ؟

لَقَدْ أَعْمَتْكَ العاطِفَةُ عَنِ الحَقِّ ، يا أَبا حُذَيْفَةَ ، فَعَصَيْتَ أَمْرَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَعارَضْتَهُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتي جَرَتْ عَلى لِسانِكَ . وَهَلْ أَمْرُ الرَّسولِ إلا وَحْيٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ؟ إنَّهُ لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوى !

لَقَدْ ضَلَلْتَ ، يا أَبا حُذَيْفَةَ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ما عَلَّمَكُمُ الرَّسولُ ﷺ أَنَّ الكَلِمَةَ يَقْذِفُ بِها الإنْسانُ مِنْ لِسانِهِ ، لا يَسْتَطيعُ أَنْ يُعيدَها ، فَتَهْوي بِصاحِبِها في النّارِ ، وَلا سَبيلَ إلى التَّكْفيرِ عَنْ هٰذا الخَطَإ إلا بِأَنْ يَرْزُقَكَ اللهُ الشَّهادَةَ .

وَقَذَفَ « أبو حُذَيْفَةَ » بِنَفْسِهِ في خِضَمِّ المَعْرَكَةِ ،

يَضْرِبُ يَمينًا وَشِمالاً بِسَيْفِهِ ، وَيَطْعَنُ بِرُمْحِهِ ، فَيُجَنْدِلُ الأَبْطالَ ، وَيَصْرَعُ الأَقْرانَ ، وَهُوَ يَطْلُبُ الشَّهادَةَ ، وَلٰكِنَّ المَعْرَكَةَ تَنْتَهي وَلَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ الشَّهادَةَ .

وَيَحْفِرُ المُسْلِمونَ القَليبَ (البِئْرَ) ، وَتُسْحَبُ جُثَثُ الكُفّارِ لِيُلْقى بِها فيهِ ، وَيُؤْتى بِجُثَّةِ « عُتْبَةَ بنِ رَبيعَةَ » فَتُلْقى في القَليبِ ، وَ« أبو حُذَيْفَةَ » واقِفٌ يَنْظُرُ .

وَيَلْتَفِتُ الرَّسولُ ﷺ إلَيْهِ ، فَيَرى في وَجْهِهِ تَغَيُّرًا ، فَيَقولُ لَهُ في حُنُوٍّ وَإشْفاقٍ :

« لَعَلَّكَ وَجَدْتَ في نَفْسِكَ ، يا أَبا حُذَيْفَةَ ! »

فَيَقولُ « أبو حُذَيْفَةَ » في ذِلَّةٍ وَانْكِسارٍ :

« لا - وَاللهِ - يا رَسولَ اللهِ ، وَلٰكِنّي أَعْلَمُ مِنْهُ عَقْلاً رَشيدًا ، وَرَأْيًا سَديدًا ، فَلَمّا رَأَيْتُ مَصْرَعَهُ ، وَما ماتَ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ ، بَعْدَ ما كُنْتُ أَرْجو لَهُ الهُدى وَالإيمانَ - أَحْزَنَني ذٰلِكَ . . ! »

فَدَعا لَهُ الرَّسولُ ﷺ بِخَيْرٍ .

وَيَعودُ الرَّسولُ ﷺ إلى المَدينَةِ ، وَيَعودُ المُسْلِمونَ ، وَقَدْ أَجْرى اللهُ عَلى أَيْديهِمُ النَّصْرَ ، فَهُمْ لَهُ شاكِرونَ ، وَبِنَصْرِهِ فَرِحونَ . لَكِنَّ نَفْسًا بائِسَةً يائِسَةً مِنْ بَيْنِهِمْ ، لا تَجِدُ الفَرْحَةُ بِنَصْرِ اللهِ سَبيلاً إِلَيْها ، وَإِنَّما يَعْتَصِرُها الهَمُّ وَالأَسى ، وَيُنَغِّصُ حَياتَها الغَمُّ وَالحُزْنُ . . هِيَ نَفْسُ « أَبي حُذَيْفَةَ » ؛ فَهِيَ لا تُريدُ أَنْ تَشْعُرَ بِعَفْوِ الرَّسولِ عَنْها ، وَلا تَرى في بَلائِها في المَعْرَكَةِ تَكْفيرًا عَنْ جُرْمِها ، وَإِنَّما تَعيشُ حَياةَ النّادِمينَ . وَيُتَرْجِمُ اللِّسانُ عَنْ هَذِهِ النَّفْسِ اللَّوّامَةِ بِقَوْلِهِ : « ما أَنا بِآمِنٍ مِنْ تِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتي قُلْتُ يَوْمَئِذٍ ، وَلا أَزالُ مِنْها خائِفًا إِلا أَنْ تُكَفِّرَها عَنّي الشَّهادَةُ ! »

وَتَدُقُّ رَحى الحَرْبِ بَيْنَ الرَّسولِ ﷺ وَالمُشْرِكينَ ، وَيَسْتَعِرُ القِتالُ ، وَ« أَبو حُذَيْفَةَ » يَقْذِفُ بِنَفْسِهِ في المَعارِكِ كُلِّها ، وَيَخوضُ الغَزَواتِ جَميعَها ، وَيُبْلي فيها بَلاءً حَسَنًا ، وَهُوَ يَرْجو الشَّهادَةَ فَلا يَظْفَرُ بِها .

وَيَنْتَقِلُ الرَّسولُ ﷺ إلى الرَّفيقِ الأَعْلى ، وَهُوَ راضٍ عَنْ « أَبي حُذَيْفَةَ » وَلَكِنَّ « أَبا حُذَيْفَةَ » غَيْرُ راضٍ عَنْ نَفْسِهِ ، وَما زالَ خائِفًا مِنْ كَلِمَتِهِ تِلْكَ ، الَّتي انْطَلَقَتْ مِنْ لِسانِهِ كالسَّهْمِ !

وَتَرْتَدُّ بَعْضُ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ عَنِ الإِسْلامِ ، وَيَكادُ يَنْحَصِرُ الإِسْلامُ في مَكَّةَ وَالمَدينَةِ وَالطّائِفِ وَيُشَمِّرُ الخَليفَةُ أَبو بَكْرٍ عَنْ ساعِدِ الجِدِّ ، وَيَدْعو الصَّحابَةَ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأَنْصارِ لِقِتالِ المُرْتَدّينَ ، وَيُسْرِعُ المُسْلِمونَ إِلى الاسْتِجابَةِ ، وَيَتَقَدَّمُ « أَبو حُذَيْفَةَ » الصُّفوفَ .

وَكانَ « مُسَيْلِمَةُ الكَذّابُ » وَقَوْمُهُ « بَنو حنيفَةَ » أَقْوى المُرْتَدّينَ بَأْسًا ، وَأَشَدَّهُمْ شَوْكَةً - فَرَماهُمُ الخَليفَةُ أَبو بَكْرٍ رضي الله عنه بِسَيْفِ اللهِ المَسْلولِ خالِدِ بْنِ الوَليدِ ، بَعْدَ أَنْ هَزَموا « عِكْرِمَةَ بْنَ أَبي جَهْلٍ » .

دارَتِ المَعارِكُ الطّاحِنَةُ بَيْنَ المُسْلِمينَ وَالمُرْتَدّينَ ، فَكانَتِ الرّيحُ بادِئَ الأَمْرِ في جانِبِ المُرْتَدّينَ ، فَصاحَ خالِدٌ « وا مُحَمَّداهُ » ، فَهاجَتْ ذِكْرَياتُ المُهاجِرينَ

وَالأَنْصار ، ثُمَّ مَيَّزَ « خالِدٌ » الطَّوائِفَ بَعْضَها مِنْ بَعْض ، وَجَعَلَ لِكُلِّ طائِفَةٍ رايَةً تُقاتِلُ تَحْتَها ، حَتّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ تَتَسَرَّبُ الهَزيمَةُ إلى صُفُوفِ المُسْلِمينَ .

وَحَمَلَ لِواءَ المُهاجِرينَ « زَيْدُ بْنُ الخَطّاب » ، وَانْطَلَقَ « أَبو حُذَيْفَةَ » مَعَهُ مُقاتِلاً في سَبيلِ اللهِ وَهُوَ يَصيحُ بِالمُسْلِمينَ : « يا أَهْلَ القُرْآنِ ، زَيِّنوا القُرْآنَ بِالأَفْعالِ . »

اِنْدَفَعَ « أَبو حُذَيْفَةَ » ، لا يَخْشى بَطْشَ المُرْتَدّينَ ، وَلا يَهابُ قُوَّتَهُمْ وَبَأْسَهُمْ ، وَمَضى المُسْلِمونَ في أَثَرِه ، يَنْصُرونَ الحَقَّ ، وَيَدْحَضونَ الباطِلَ ، حَتّى زَهَقَ الباطِلُ ، وَوَلّى « مُسَيْلِمَةُ الكَذّابُ » وَأَنْصارُهُ الأَدْبارَ ، وَلَجِئوا إلى الحَديقَةِ . . حَديقَةِ المَوْتِ الَّتي حَصَدَهُمْ فيها المُسْلِمونَ حَصْداً ، وَقَتَلوا « مُسَيْلِمَةَ الكَذّابَ » .

وَعَلى أَسْوارِ الحَديقَةِ ، نالَ « أَبو حُذَيْفَةَ » مُبْتَغاهُ ، وَسَقَطَ شَهيداً يَتَضَرَّجُ في دِمائِه ، وَقَدْ اطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ اللَّوّامَةُ ، وَرَجَعَتْ إلى رَبِّها راضِيَةً مَرْضِيَّةً .



سلسلة تربوية تثقيفية إسلامية

رياض الإيمان شذا فواح من حياة الرسول ﷺ وصحابته، يضوع في الآفاق، فيغمر القلوب بعطره، ويحيي النفوس بصدقه؛ فتجد فيه الأسوة التي تفتقدها، والقدوة التي تنشدها؛ فقد كانت حياتهم التطبيق العملي لما أنزله الله على رسوله.

نفحات من سيرة الرسول وصحبه

١- المولد والنشأة
٢- الرسول في المدينة
٣- الفتح والوفاة
٤- حاضنة الإسلام
٥- سابق الحبشة
٦- صديق القرآن
٧- الشهيد الحي
٨- الباحث عن الحق
٩- أم حبيبة
١٠- الراكب المهاجر


01R160608

مكتبة لبنان ناشرون

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان